محمد قصير

زَمنُ العبِيد

الجزء الثاني

رواية



رواية
ممنوعة من النشر

مكتبة النور
الرباط، المملكة المغربية

زَمنُ العَبِيد

َ ِ

محمد قصير

زَمَنُ العَبِيدِ

الجزء الثاني

رواية

زَمَنُ العَبِيدِ

الجزء الثاني

----

* الكاتب: محمد قُصير

* النوع: رواية فلسفية - الجزء الثاني

* الطبعة الأولى: نيسان ٢٠٢٦ - مكتبة النُور

* تصميم الغلاف: محمد قُصير

* الناشِر: مَطبعة النُور – الرباط، المملكة المغربية

مـــطـــبـــعـــة الــــنُــــور

المؤَلِف: 06 86 44 69 06 – المكتبة: 08 14 45 68 07

البريد الإلكترونـــي: prkossirmohamed@gmail.com

عنِ الـمُؤلِـف

محمد قصـير (٤ أكتوبر ١٩٩٧ – الآن) فيلسـوف ومفكر مغربي، أسـتاذ وناقد سياسي وأدبي، كاتب روائي، مُحلل نفسـي ومُنظر تربوي. بنى أفكاره على رفض الفلسفة المثالية المتعالية لإيمانويل كانط والفلسفات المثـالية منتقـدًا العقـل العربي الراكـد والتفـاهـة السـائـدة في الواقع الاجتماعي، فتبنّى نظـامًا مـاورائيًا وأخلاقيًا إلحـاديًا يرفض الموروث الفكري السائد والأوهام المُعاصرة

لـلمُؤلِـف أعمـال مـنـهـا:

- اللّيالِي السودَاء (سيرة روائية ذاتية)
- زمنُ العبيِد (رواية) – الجزء الأول
- وهَل يُعقل؟ (رواية فلسفية)
- اَلـمَـوت (رواية)
- الدين بين الأسطورة والسحر (دراسة عِلمية)
- المُوجز في الطب النفسي (مُؤلَف عِلمي)



-

تنويه للقارئ

هذه الرواية عمل أدبي تخييلي، وجميع الأحداث والشخصيات والأسماء والوقائع الواردة فيها من وحي خيال الكاتِب، ولا يُقصد بها تمثيل أي شخص حقيقي أو مؤسسة أو جماعة أو جهة بعينها.

وأي تشابه قد يرد بين شخصيات الرواية أو أحداثها وبين أشخاص أو وقائع حقيقية، فهو تشابه محض الصدفة، ولا يحمل أي قصد مباشر أو إساءة أو إشارة واقعية مقصودة.

تندرج هذه الرواية في إطار التعبير الأدبي والفلسفي، وتسعى إلى مساءلة الوجود الإنساني، والحرية، والسلطة، والخوف، والعبودية الرمزية، وعلاقة الفرد بالمجتمع والدولة والدين والفقر. وهي لا تقدّم أحكامًا نهائية، ولا تدّعي امتلاك الحقيقة، بل تفتح بابًا سرديًا وفكريًا للتأمل في الإنسان حين يجد نفسه محاصرًا بين القهر الخارجي وانكساره الداخلي.



مقدمة الجزء الثاني

لا تبدأ العبودية حين تُقيَّد الأيدي بالسلاسل، بل حين يتعلّم الإنسان أن يخاف من حريته.

فالسلسِلة، في صورتها القديمة، كانت واضحة، باردة، معدنية، تُرى في المعصم وتُسمع في الطريق، يعرف العبد أنه عبد لأنه يرى قيده، ويعرف السيد أنه سيد لأنه يمسك بطرفه الآخر. أمّا في زمننا، فقد صار القيد أذكى، أرقّ، أعمق، وأكثر خفاءً. لم يعد يُلبس في اليد، بل في الوعي. لم يعد يجرّ الجسد فقط، بل يجرّ الرغبة، واللغة، والحلم، والخوف، والخبز، والذاكرة. صار الإنسان عبدًا وهو يظن أنه يختار، مطيعًا وهو يسمي طاعته عقلًا، راكعًا وهو يسمي ركوعه حكمة، صامتًا وهو يعتقد أن صمته نجاة.

يأتي هذا الجزء الثاني من زمن العبيد لا بوصفه استمرارًا لحكاية رجل واحد، بل بوصفه امتدادًا لجراح كثيرة تسكن وجوهًا مختلفة. فالسارد هنا ليس فردًا معزولًا عن واقعه، بل مرآة مكسورة لطبقة كاملة من البشر الذين وُلدوا في الهامش، وتعلموا منذ الطفولة أن الحياة

ليست حقًا، بل معركة يومية من أجل أقلّ ما يُسمّى حياة. إنه ابن الحومة، وابن الفقر، وابن السجن، وابن الأم التي ماتت وهي تنتظر، وابن الوطن الذي يطالب أبناءه بالولاء بينما يتركهم عراة أمام الجوع والخذلان.

في هذا الجزء، لا تعود العبودية مفهومًا تاريخيًا بعيدًا، ولا صورة قديمة لعبدٍ وسيد، بل تتحول إلى بنية خفية تحكم تفاصيل الحياة اليومية. العبد الحديث قد يحمل هاتفًا ذكيًا، ويملك حسابًا في مواقع التواصل، ويضحك في المقاهي، ويناقش السياسة، ويحلم بالهجرة، لكنه في عمقه مسلوب الإرادة. يظن أنه حر لأنه يستطيع الكلام، لكنه يعرف أن كلمة واحدة قد تكلفه مستقبله. يظن أنه حر لأنه يستطيع الرحيل، لكنه لا يملك ثمن الطريق. يظن أنه حر لأنه يكره الظلم، لكنه قد يُدفع، من شدة قهره، إلى ظلم آخر أشد سوادًا.

هذه الرواية تسائل ذلك المُوضع الغامض الذي يتحول فيه المقهور إلى أداة، والضحية إلى متهم، والجائع إلى مشروع جريمة، والحالم بالنجاة إلى شاهد على خراب أكبر منه. إنها لا تبرئ الإنسان من مسؤوليته، لكنها ترفض أيضًا أن تنظر إليه خارج شروطه

القاسية. فالإنسان لا يسقط وحده دائمًا؛ أحيانًا تدفعه المدينة، وتدفعه الدولة، ويدفعه الفقر، ويدفعه موت الأم، ويدفعه السجن، ويدفعه المجتمع الذي يرفضه، ثم حين يسقط، يقف الجميع فوقه ليقولوا: لقد اختار السقوط.

غير أن الرواية، رغم قتامة عالمها، لا تحتفي بالخراب، ولا تقدّس اليأس، ولا تبحث عن بطولة زائفة في العنف. بل تحاول أن تضع القارئ أمام السؤال الأكثر قسوة: ماذا يبقى من الإنسان حين تُسلب منه كل الطرق النظيفة؟ هل يظل مسؤولًا عن اختياره حين لا يُترك له إلا الاختيار بين جوعٍ ودم، بين سجنٍ وسجن، بين سيدٍ يرتدي بدلة وسيدٍ يرتدي جلبابًا، بين دولةٍ تقمعه وجماعةٍ تريد استعمال غضبه؟ وهل يستطيع الإنسان أن يقول "لا" في اللحظة التي لا يملك فيها ثمن خبزة؟

إن فلسفة هذا الجزء تقوم على تفكيك الوهم الأخطر في المجتمعات المقهورة: وهم أن العبودية تأتي دائمًا من الخارج. فالسيد لا ينتصر بقوته وحدها، بل بخوف العبيد، وبحاجتهم، وبصمتهم، وباستعدادهم للدفاع عن القيود حين يطول ألفهم لها. وهكذا يصير الفقر مدرسة للطاعة، والسجن مصنعًا للانكسار،

والدين حين يُشوَّه أداة للتجنيد، والوطن حين يفسد قفصًا كبيراً يُطلب من المسجونين فيه أن يغنّوا للنشيد.

في زمن العبيد لا يوجد شرّ واحد، ولا جلاد واحد، ولا خلاص بسيط. هناك منظومة كاملة تتقاسم جسد الإنسان وروحه: دولة تريد مواطنًا خائفًا، ومجتمع يريد فردًا مطيعًا، وفقر يريد كائنًا قابلاً للبيع، وجماعات تريد حقدًا جاهزًا للاستعمال، وذاكرة أمٍّ ميتة تظل تسأل ابنها: هل بقي فيك ما يستحق الحياة؟

إنها رواية عن الذين لا يجدون مكانًا لهم في لغة السلطة ولا في لغة الوعظ. عن أولئك الذين يعرفون أن الظلم حقيقي، لكنهم يرفضون أن يعالجوه بظلم آخر. عن الإنسان حين يقف بين نارين: نار الدولة التي لا ترحم، ونار التطرف الذي لا يفكر. عن ذلك الكائن الصغير الذي لا يملك شيئًا، ومع ذلك يحاول في لحظة حاسمة أن ينقذ ما تبقى من ضميره.

وهنا تكمن المأساة العميقة: أن تقول لا، ثم لا يكافئك العالم على قولها. أن تختار ألا تكون قاتلاً، فيعاملك القانون كقاتل. أن تمنع الدم، فيُكتب اسمك بين الملطخة أيديهم به. أن ترفض العبودية كلها، فيقتلك كل سيد لأنه لم يستطع امتلاكك.

هذا الجزء الثاني ليس رواية عن النجاة، بل عن ثمن النجاة حين لا تكتمل. ليس عن الحرية كما تُكتب في الشعارات، بل عن الحرية حين تكون وحيدة، جائعة، مطاردة، ومكلفة إلى درجة الموت. إنه نص عن الإنسان حين يكتشف أن العالم لا ينقسم إلى خير وشر كما تعلّم في الحكايات، بل إلى قوى كثيرة تتصارع فوق جسده، وكل واحدة منها تريد أن تقنعه أنها الطريق الوحيد.

ولذلك، فإن القارئ لا يدخل هذه الرواية ليطمئن، بل ليتورط. لا ليحكم على السارد من بعيد، بل ليسأل نفسه: ماذا كنت سأفعل لو كنت مكانه؟ لو خرجت من السجن بلا أم، بلا بيت، بلا مال، بلا عائلة، ثم وجدت من يمد لك يده وفي يده خبز وهاوية؟ هل كنت ستعرف الطريق؟ هل كنت ستظل نقيًا؟ هل كنت ستقول لا؟

ربما لا تقدم الرواية جوابًا.

لكنها تضع السؤال حيث ينبغي أن يكون: في صدر القارئ، لا في فم الراوي فقط.

فهذه ليست حكاية عبدٍ واحد.

إنها حكاية زمن كامل.

زمنٍ يقتل الإنسان إذا أطاع، ويقتله إذا تمرّد، ويتركه في الحالتين يردد، وهو يسير نحو نهايته:

هكذا هو زَمَنُ العَبِيدِ.

محمد قصير ٢٠٢٦/٠٤/٢٩

٣١

دخلتُ السجن.

لم أدخلهُ كما يدخل الوحش إلى عرينه، ولا كما يدخل المجرم إلى مكان يشبهه، ولا كما يدخل الرجل الذي يعرف مسبقًا أن نهاية الطريق كانت تنتظره خلف باب حديدي ودفتر تسجيل ورقم بارد يُعلّق على ملف. دخلته كمن يُدفع إلى جوف حيوان ضخم لا يراه من الخارج إلا جدارًا، فإذا دخل اكتشف أن الجدار كان جلدًا، وأن الرائحة كانت نَفَسًا، وأن الأبواب لم تكن أبوابًا، بل أسنانًا تغلق على الداخلين ببطءٍ إداريٍّ لا غضب فيه ولا رحمة. دخلت السجن لا لأنني كنت مجرمًا بمفهوم الإجرام كما يشرحه التلفاز، ولا لأنني كنت أحمل في صدري رغبة قديمة في أذى الناس، بل لأنني سرقت. نعم، سرقت. وهذه الكلمة وحدها كافية عند مجتمع منافق لكي يمحو كل ما قبلها وما بعدها، كأن الإنسان حين يسرق، ولو مرة واحدة، يتحول من كائن له تاريخ وجوع وخوف وحلم إلى فعل واحد معلق على جبينه.

سرقتُ لأجمع المال.

والمال، في هذا الوطن، ليس ورقًا فقط. المال جواز مرور بين طبقات الجحيم. المال هو الفرق بين من يُسمّى مغامرًا ومن يُسمّى شمكارًا. بين من يهاجر بطائرة فيُصفق له الناس، ومن يحاول الهرب في قارب فيسمونه حراكًا. بين من يسرق الملايين فيُنتخب، ومن يسرق محفظة أو هاتفًا أو مبلغًا صغيراً فيُرمى بين القتلة والمغتصبين والسفاحين، كأن العدالة، في بلادنا، لا ترى حجم الجريمة بل حجم صاحبها. سرقتُ لأنني كنت أريد أن أخرج من هذا الوطن البئيس، هذا الوطن الذي نُهب من كل شيء حتى صار عاريًا للعيان، واقفًا في الشارع بلا ثوب، بلا كرامة، بلا حياء، والناس تمر بجانبه وتقول: اللّه يحسن العوان، ثم تذهب إلى المقاهي لتناقش مباراة الأمس وغلاء الطماطم والمازوط.

كنت أريد أن أخرج.

لا لأن الخارج جنة، فقد كنت أعرف أن الجنة اختراع الفقراء حين يشتد عليهم الجحِيم، ولكن لأن البقاء هنا صار نوعًا من المشاركة في موت بطيء. الوطن عندنا لم يعد أرضًا، بل غرفة ضيقة يتزاحم فيها الملايين حول نافذة واحدة تطل على الهجرة. كل واحد ينتظر دوره ليشُم شيئًا من هواء لا يخصه. كنت أحلم أن أهرب لا

إلى أوروبا فقط، بل إلى احتمال آخر لنفسي. إلى مكان لا يسألك فيه المخزن عن نيتك كلما أطلقت لحيتك، ولا يسألك الجوع عن كرامتك كلما مدت أمك يدها إلى آخر درهم. كنت أريد أن أغادر لأنني لم أعد أحتمل أن أرى نفس الوجوه في الحومة تكبر دون أن تتغير، نفس الشباب جالسون على حافة الوقت، يدخنون، يسبّون، يضحكون، ويحلمون كمن يحلم داخل زنزانة مفتوحة.

ثم دخلت الزنزانة المغلقة.

أول مرة دخلت فيها، شعرت أن الهواء نفسه مُدان. كان السجن يملك رائحة لا تشبه أي رائحة أخرى؛ خليطًا من العرق القديم، والبول، والرطوبة، والدخان، والخوف، والخبز الرخيص، وأجساد كثيرة أُجبرت على أن تتقاسم المكان نفسه حتى فقد كل جسد حقه في أن يكون وحده. كنت غريبًا. والغريب في السجن لا يحتاج إلى تعريف. يراه الجميع من طريقة مشيِه، من عينيه اللتين تبحثان عن زاوية آمنة، من صمته الزائد، من ارتباكه أمام القواعد غير المكتوبة. في الخارج، القانون مكتوب في الجريدة الرسمية ولا يقرأه أحد. في الداخل، القانون غير مكتوب، لكن من لا يحفظه يُكسر بسرعة.

لم يكن لديهم منطق بسيط يحترم حتى درجات السقوط. لم يكن هناك عقل يقول: هذا صاحب جُنحة، وهذا صاحب جِناية، هذا دخل لأنه سرق ليأكل أو يهرب أو يسد دينًا، وهذا قتل، وهذا اغتصب، وهذا فجّر، وهذا باع المخدرات، وهذا قال كلمة سياسية في بلد يخاف من الكلمات أكثر مما يخاف من السكاكين. في السجن، الكُل مع الكُل. يُرمى الصغير قرب الكبير، والمُرتبك قرب المحترف، والضعيف قرب من تمرّن طويلاً على افتراس الضعفاء. وكأن المؤسسة لا تريد فقط أن تعاقبك على ما فعلت، بل تريد أن تعلّمك ما لم تكن تعرفه من الإجرام. تَدخُل لصًا صغيراً، فتخرج، إن خرجت، حاملاً في داخلك جامعة كاملة للخراب.

في الأيام الأولى، كنت أمشي كمن دخل مقبرة للأحياء. الوجوه ليست ميتة تمامًا، لكنها فقدت ذلك الضوء الذي يجعل الإنسان قابلاً للثقة. هناك وجوه كثيرة رأيتها، بعضها لا أنساه ولو غسلت ذاكرتي بماء البحر. رأيت الحباسة القدامى، أولئك الذين صار السجن عندهم وطنًا ثانيًا، يعرفون ممراته أكثر مما يعرف الحارس، ويحفظون أسماء المديرين الذين مروا عليه كما يحفظ الشيوخ أسماء الملوك. رأيت القتالة بعيونهم الهادئة، وأخافني هدوؤهم

أكثر من قصصهم؛ فالإنسان الذي قتل مرة ثم صار يتحدث عن القتل بنبرة من يصف طبخة، يكون قد عبر بابًا لا يعود منه كما كان. رأيت السفاحة الذين لم يكن الدم عندهم كارثة بل لغة. رأيت إرهابيين، أو من قيل إنهم إرهابيون، بعضهم يملك لحية أكثر مما يملك فكرة، وبعضهم يملك فكرة أكثر مما يملك حياة، وبعضهم لم يكن سوى شاب مسحوق وجد في التطرف شكلًا أسود من أشكال المعنى. ورأيت معارضين سياسيين، أو هكذا كانوا يسمُونهم همسًا، رجالًا دخلوا لأنهم قالوا إن الملك عارٍ في بلاد يُعاقَب فيها من يصف العري أكثر ممن يصنعه.

بلاد القمع بكل المقاييس.

بلاد غريبة، إن ربيت لحيتك قالوا متطرف، وإن حلقتها قالوا مائع، وإن صمتَّ قالوا راضٍ، وإن تكلمت قالوا فتّان، وإن كتبت قالوا تمسّ بالمقدسات، وإن جِعت قالوا اصبر، وإن سرقت لتخرج من الجوع قالوا مجرم. بلاد تصنع العبِيد ثم تندهش حين لا يتصرفون كأحرار. بلاد تجعل الإنسان يركع طيلة عمره أمام رموز لا يجرؤ على لمسها، ثم تسمي ذلك وطنية. هكذا هو زمن العبيد: لا يحتاج السيد إلى سوط دائم، يكفي أن يزرع في العبد خوفًا مقدسًا.

بعد ذلك، سيدافع العبد عن قيده كما يدافع الحر عن حريته. سيقدس البشر خوفًا، لا حبًا. خضوعًا، لا اقتناعًا. سيقول لك : حشم، راه هادوك مُقدسات، وهو لا يعرف أن أول ما يفعله الاستبداد هو أن يلبس مصالحه ثوب القداسة.

في السجن، تفهم الدولة كما لم تفهمها في المدرسة. في المدرسة يقولون لك إن الدولة قانون ومؤسسات ومواطنة. في السجن تراها على حقيقتها: باب حديدي، حارس غاضب، كاميرا عمياء حين تقع الجريمة الحقيقية، وملف يختصر إنسانًا في رقم. هناك تعرف أن الكرامة ليست حقًا كما يقولون في الخطب، بل امتيازًا يوزع حسب الطبقة والصوت والعائلة والمال. من له مال يدخل السجن ومعه امتداد صغير من الخارج: طعام أحسن، سجائر، حماية، حشيش، هاتف أحيانًا، كلمة عند الحارس، يد تمتد إليه من وراء الجدار. ومن لا مال له، يدخل عاريًا إلا من جلده، والجلد في السجن ليس ملكك دائمًا.

كان القوي يأكل الضعيف.

لا مجازًا فقط، بل حرفيًا تقريبًا. القوي يأخذ مكانك، غطاءك، طعامك، صمتك، نومك، حقك في ألا تُلمس. والضعيف لا يموت

دفعة واحدة، بل يموت بالتدريج، كي لا يتحول موته إلى فضيحة. يموت حين يتعلم ألا ينظر في عيون معينة. يموت حين يعطي نصف وجبته لمن يبتزه. يموت حين يضحك على نكتة مهينة قيلت عنه لأنه يعرف أن الاعتراض سيكلفه أكثر. يموت حين يسمع صراخًا في الليل ولا يتحرك. يموت حين يفهم أن النجاة داخل السجن ليست أن تحتفظ بكرامتك كاملة، بل أن تختار أي جزء منها ستتنازل عنه كي يبقى جسدك سالماً إلى الصباح.

أما الذين دخلوا لأول مرة، أمثالي، فقد كنا فريسة سهلة. السجن يعرف الداخل الجديد كما يعرف البحر الغريق. في عينيه ماء كثير، وفي خطواته اعتذار غير مفهوم، وفي صمته سؤال يقول: ماذا أفعل؟ وهذا السؤال وحده يكفي ليعرف الوحوش أنك لم تتعلم بعد. كان السُجناء الذين ليس لهم باع طويل في خبايا السجون يتعرضون لما لا يقدر اللِسان على حمله. كنت أسمع الحكايات أولًا فأظنها مبالغة، ثم بدأت أرى آثارها في العيون، في المشي، في صمت بعض الصغار حين يستيقظون صباحًا كأنهم خرجوا من حرب لم يسمعها أحد. كانوا يقولون إن بعضهم يُنوَّم ليلاً بمنوم، وإن ما يحدث بعد ذلك يُدفن في الحياء والخوف والتواطؤ. كانوا يهمسون بأن بعض

الحراس يعرفون، وأن بعضهم يسكت، وأن بعضهم يغض النظر مقابل شيء ما، وأن الليل في السجن ليس وقت نوم، بل وقت انكشاف السلطة حين تطفئ مصابيحها وتقول للوحوش: افعلوا ما شئتم، المهم ألا يعلو الصوت.

لا أعرف ما الذي هو أبشع: الجريمة، أم أن تصبح الجريمة جزءًا من نظام المكان.

حين تكون الفضيحة استثناء، يبقى للإنسان أمل أن يصرخ. أما حين تصبح الفضيحة عادة، فإن الصراخ نفسه يبدو ساذجًا. كانوا يقولون لك :سكتُ أولد القحبة، راه هذا هو الحبس .كأن السجن ليس مؤسسة يُفترض أن تحفظ الحد الأدنى من الحياة، بل غابة لها قوانينها. وكأن من يدخلها يسقط عنه حقه في أن يكون إنسانًا. هناك تعلمت أن المجتمع لا يكره الجريمة كما يدعي، بل يكره المجرم الفقير فقط. أما الجريمة المنظمة، جريمة الإهانة، جريمة التواطؤ، جريمة الإذلال، جريمة أن تُحوّل إنسانًا إلى جسد بلا حماية، فهذه لا يراها المجتمع لأنها لا تسرق هاتفًا من جيبه، بل تسرق شيئًا أعمق لا يراه إلا من فقده.

كان الحشيش يدخل إلى السجن.

والأسلحة البيضاء تدخل.

والاغتصاب موجُود.

والهواتف تدخل.

وكل شيء يدخل، إلا الرحمة.

هذه هي النكتة السوداء. جدار السجن، الذي قيل لنا إنه لحماية المجتمع من الخارجين عن القانون، لم يكن يمنع الممنوعات، بل كان يمنع الحقيقة من الخروج. إذا كان لديك مال أو علاقة أو قدرة على الدفع، فالسجن يصبح سوقًا. كل شيء له ثمن: مكان أفضل، قطعة حشيش، سكين صغير، مكالمة، خبر من الخارج، حماية، حتى الصمت له ثمن. أما القانون، فكان يمر بيننا كموظف متعب، يظهر حين يريدون أن يعاقبوا الضعيف، ويختفي حين يتكلم المال.

والاكتظاظ سيد الموقف.

كانت الزنزانة أكبر من قبر بقليل، وأصغر من أن تسمى مكانًا للبشر. أجساد كثيرة، أنفاس كثيرة، أمراض كثيرة، كوابيس كثيرة، وليل واحد لا يكفي للجميع. كنا ننام كما ينامُ السردين في العلب، إلا أن السردين على الأقل مات قبل أن يُرصّ. هناك من ينام قرب الباب، ومن ينام قرب المرحاض، ومن ينام وهو جالس، ومن

يتناوب على جزء من الأرض كأن الأرض صارت امتيازًا. الهواء يُستعمل ثم يُعاد استعماله. الرائحة لا تغادر. الشتائم تتصاعد. السعال ينتقل. الغضب ينتقل. الجنون ينتقل. وحين يشتد الحر، تشعر أن الزنزانة ليست غرفة، بل رئة مريضة تحاول أن تتنفس بنا جميعًا.

كنت أسمع عن تقارير حقوقية تتحدث عن السجون، عن صور قاتمة، عن سوء معاملة، عن ضرب، وتعليق من اليدين المصفدتين، وحلق لحى بالقوة، وتمزيق ثياب، وعبث بالأماكن الحساسة بدعوى التفتيش، وإهانات، وزنازين عقاب، وحرمان من الزيارة، وتحريض سجناء على سجناء، وحرمان من التطبيب، وتهديد بالاغتصاب، وفُسحة لا تكفي حتى للحيوان كي يتذكر أن الشمس موجودة. كنت أسمع ذلك قبل السجن فأظنه لغة جمعيات وبيانات، لغة مكاتب بعيدة في مدن باردة مثل جُنيف، حيث تُكتب الكلمات بربطات عنق نظيفة. لكن حين دخلت، فهمت أن التقرير، مهما كان قاسيًا، يبقى أرحم من الواقع، لأن الورق لا يستطيع أن ينقل رائحة الزنزانة ولا نظرة سجين يعرف أن لا أحد سيصدقه.

كانوا يقولون إن بعض السجناء وصفوا السجون بالمعسكرات النازية. قد تبدو العبارة ضخمة، وربما سيرد مسؤول ببلاغ طويل عن المبالغة والتحيز والأكاذيب، لكن من عاش لحظة إذلال عارية يعرف أن اللغة، مهما قست، تظل أحيانًا أقل من الإحساس. حين يُجرّد الإنسان من ملابسه صباحًا ومساءً، حين تُهان عائلته أمامه، حين يُدفع إلى زنزانة عقاب لأنه تكلم، حين يُحرم من زيارة أمه، حين يُترك مرضه يتعفن لأن طلب التطبيب يزعج الإدارة، حين يصير جسده مفتوحًا للتفتيش والإهانة والتهديد، فإن المقارنة لا تأتي من رغبة في الشعر، بل من حاجة إلى كلمة كبيرة بما يكفي لتصرخ.

ثم تأتي البلاغات الرسمية، باردة ومنظمة، تقول إن كل هذا أكاذيب، وإن هناك حملة مغرضة، وإن الهدف هو ثني الإدارة عن تخليق الفضاء السجني وترسيخ المساواة بين السجناء. ما أجمل الكلمات حين تُستعمل لتغطية الدم .تخليق الفضاء السجني .عبارة تشبه عطرًا يُرش فوق جثة .ترسيخ المساواة .أي مساواة؟ مساواة بين من يملك ومن لا يملك؟ بين من يحتمي بظهر قوي ومن ينام وهو يخاف أن تمتد يد إليه في الظلام؟ بين من يستطيع أن يشتري صمته ومن لا يملك حتى ثمن سيجارة؟ كانت الإدارة تتحدث كما

تتحدث كل سلطة حين تُحاصَر: تنفي، تتهم، تتحدث عن جهات، عن أكاذيب، عن تحيز، عن عمل حقوقي غير مسؤول. والضحية، كالعادة، يصبح ملفًا مشبوهًا، وصراخه مُؤامرة، وندبته ادعاء.

هكذا تعلمت أن القمع لا يحتاج فقط إلى عصا.

يحتاج أيضًا إلى قاموس.

العصا تضرب الجسد، والقاموس يضرب الحقيقة. حين تقول إن التعذيب "تأديب"، وإن الإهانة "تفتيش"، وإن الحرمان "إجراء أمني"، وإن الصرخة "ادعاء"، وإن المطالبة بالحق "تحريض"، فأنت لا تعذب الإنسان مرتين فقط، بل تسلبه اللغة التي يمكنه بها أن يثبت أنه عُذّب. وهذا أقسى ما في السجون: ليس أن تُهان، بل أن تسمع من يقول إن إهانتك غير موجودة، أو موجودة لأجل مصلحتك، أو موجودة لأنك تستحق.

في تلك الأيام الأولى، كنت أراقب كل شيء بعينين مفتوحتين أكثر مما ينبغي. كنت لا أزال أملك سذاجة الخارج. كنت أظن أن السجن مكان للعقوبة، ثم اكتشفت أنه مكان لإعادة صناعة الإنسان على صورة الذل. العقوبة العادلة، إن وُجدت، تقول للإنسان: لقد أخطأت، وسنحاسِبك، لكنك تبقى إنسانًا. أما السجن كما رأيته،

فكان يقول: لقد سقطت في أيدينا، وسنريك أن إنسانيتك كانت امتيازًا عابرًا. الفرق بين العدالة والانتقام يبدأ هنا. العدالة تضبط الجريمة، أما الانتقام فيستلذ بتحطيم المجرم. والدولة التي تنتقم من مساجينها لا تصلحهم، بل تنتج نسخًا أكثر ظلامًا منهم.

كنت أقول في داخلي: هل هذا هو الوطن الذي كنت أسرق لأهرب منه؟ ها هو الوطن يلخص نفسه في زنزانة. الخارج والداخل ليسا مختلفين كثيرًا. في الخارج أيضًا القوي يأكل الضعيف، فقط بأدوات أنظف. في الخارج أيضًا الحراس موجودون، لكنهم يرتدون بدلات وربطات عنق. في الخارج أيضًا تُباع الامتيازات. في الخارج أيضًا من يملك المال يخرج من الجريمة كما تخرج الشعرة من العجين، ومن لا يملك يدخل السجن لأنه حاول أن يسرق ثمن الهروب. في الخارج أيضًا يوجد اكتظاظ، لكنه اكتظاظ في الحافلات، في المستشفيات، في المدارس، في أدمغة الشباب العاطل. السجن لم يكن استثناءً من الوطن؛ كان الوطن وقد خلع المكياج.

هناك فهمت عنوان حياتنا: زمنُ العبِيد.

لسنا عبيدًا لأن لدينا أسيادًا واضحين يحملون سياطًا في الساحات. العبودية الحديثة أذكى من ذلك. نحن عبيد لأننا نحرس السجن من الداخل. نُقدس من يذلنا، ونخاف من السؤال، ونكره من يقول لنا إن الباب ليس قدرًا بل صناعة بشرية. نحن عبيد لأن الفقير حين يُقمع يقول :اللّه غالب بدل أن يقول: من سرقني؟ نحن عبيد لأننا نفرح بسقوط من يشبهنا إذا تجرأ أكثر منا، فنقول :يستاهل، فيه الدودة. نحنُ عبيد لأننا نرى الظلم وننتظر أن يرفعه الظالم عن نفسه. نحن عبيد لأننا نربي أبناءنا على الطاعة قبل الكرامة، وعلى الخوف قبل التفكير، وعلى احترام "المقُدسات" قبل احترام الإنسان الحي الذي يجوع أمامهم.

في السجن، كان الليل أطول من أي ليل عرفته.

ليس لأن الساعات لا تمر، بل لأن الليل هناك لا يأتي وحده. يأتي محمولًا بأصوات مكتومة، وشخير متعب، وبكاء لا يريد أن يعترف أنه بكاء، وحركات غامضة، وصلوات خافتة، وسباب، وارتطام باب حديدي، وسعال يشبه الخنق. كنت أضع رأسي على ما يشبه الوسادة وأفكر: كيف وصلت إلى هنا؟ سرقة صغيرة لأجل حلم كبير، ثم ها أنا بين رجال يحملون أعمارًا من الدم والخذلان.

لكن السؤال الحقيقي لم يكن: كيف وصلت؟ بل: كيف وصل الوطن كله إلى هنا؟ كيف صار الخروج منه حلمًا يستحق المخاطرة؟ كيف صار الشاب المغربي ينظر إلى البحر كما ينظر المؤمن إلى الجنة؟ كيف صار الوطن مكانًا نحبه في الأغاني ونكرهه في الإدارات ونخاف منه في المخافر ونهرب منه في القوارب؟

لم أكن بريئًا.

لا أريد أن أصنع من نفسي قديسًا اجتماعيًا. سرقتُ. والخطأ يبقى خطأ حتى لو كان له سياق. لكنني كنت أرى أن المجتمع الذي يحاسب يدي على السرقة لا يحاسب اليد الكبرى التي سرقت مني المستقبل قبل أن أسرق. من سرق المدرسة؟ من سرق المستشفى؟ من سرق الحُلم؟ من سرق الثقة؟ من سرق البحر وجعله مقبرة؟ من سرق اللغة حتى لم نعد نعرف كيف نطالب بحقوقنا دون أن نتهم بالخيانة؟ إذا كانت العدالة صادقة، فلتفتح زنزانة كبيرة تكفي لكل من سرق وطنًا، لا لكل من سرق ثمن الهرب منه.

لكن العدالة عندنا مثل باب السجن: يُفتح فقط من الخارج، ويفتحه من يملك المِفتاح.

٣٢

خرجتُ من السجن بعد ستة أشهر.

ستة أشهر فقط، كما قد يقول من لم يدخل السجن قط. ستة أشهر في أوراق الإدارة مدة قصيرة، في عين القاضي عقوبة خفيفة، في لسان الناس :صافي غير ستة شهور ودازت .لكن الزمن في السجن لا يُقاس كما يُقاس في الخارج. الشهر هناك لا يتكوّن من ثلاثين يومًا، بل من ثلاثين جدارًا، وثلاثين ليلة، وثلاثين مرة تسأل نفسك: كيف وصل بي الأمر إلى هنا؟ اليوم الواحد هناك لا يمر، بل يُجرّ على ظهرك كما تُجرّ سلسلة حديدية في ممر طويل. الزمن في السجن لا يمشي؛ يقطر. وكل قطرة منه تسقط على رأسك حتى تحفر فيك حفرة لا يراها الناس حين تخرج. لذلك، حين فُتح الباب أخيراً، لم أشعر أنني أمضيت ستة أشهر، بل شعرت أن عمري كُله قد أُدخل إلى مطحنة، ثم أُخرج منه شيء نحيل، متعب، لا يعرف هل ما زال هو نفسه.

خرجتُ وأنا أظن أن الخارج سيعانقني.

يا لسذاجتي.

كان الضوء أول ما صدمني. ضوء النهار العادي، ذلك الذي كان الناس يمشون تحته دون امتنان، صار في عينيّ شيئًا يكاد يؤلم. رأيت السماء فارتبكت. في السجن تصبح السماء خبراً قليلاً، شريطًا صغيراً في وقت الفسحة، أو مربعًا بعيدًا خلف قضبان، أما خارج الباب فقد كانت السماء واسعة إلى درجة شعرت معها بالخوف. الإنسان الذي يعيش طويلاً تحت السقف ينسى كيف يتعامل مع الاتساع. خرجتُ، لكنني لم أكن حرًا كما تخيلت. كان السجن قد خرج معي. كان في مشيتي، في التفاتي خلفي، في خوفي من الصوت العالي، في يدي التي تحاول أن تخفي ارتجافها، في قلبي الذي لم يصدق أن الباب فُتح فعلاً، وأن الحارس لم يصرخ في وجهي :رجع، فين غادي أولد القحبة؟

أول ما خطر ببالي كان أمي.

لم أفكر في البحر، ولا في الهجرة، ولا في السرقة التي أدخلتني، ولا في القاضي، ولا في الوجوه التي تركتها خلفي في الزنزانة. فكرت في أمي فقط. أمي التي لم تزرني منذ مدة طويلة. في البداية كنت أقول لنفسي إنها ربما مريضة قليلاً، أو لا تملك ثمن الطريق، أو أن الزيارة صارت تثقل عليها. ثم بدأت الشكوك تنمو كالعفن في

جدار رطب. هل غضبت مني؟ هل كسرت قلبها إلى درجة أنها لم تستطع أن تراني خلف الزجاج أو القضبان؟ هل قالت لنفسها :ولدي حشمنا، دخل للحبس، خليوه يتربى؟ لكنني كنت أعرف أمي. الأم، حتى حين تغضب، لا تعرف كيف تهجر ابنها كاملاً. قد تعاتبه، قد تبكي، قد تدعو عليه في لحظة قهر ثم تستغفر، لكنها لا تقطع الحبل. الأم ليست شخصًا في حياتك، إنها الجهة التي يظل قلبك يظن أن العودة إليها ممكنة مهما اتسخ العالم.

كنت أقول لنفسي: سأصل إلى البيت، سأطرق الباب، ستفتح لي، ستتجمد لحظة، ثم ستبكي. ربما ستضربني على كتفي وتقول : علاش درتي فراسك هكا آ ولدي؟ ربما ستقول :دخل، دخل، شوف وجهك كيف ولى. سأُقبل يدها، سأطلب السماح، سأقول لها إن السجن علّمني ما لم تعلمني إياه الحياة، وأنني لن أعود إلى السرقة، وأنني سأجد عملاً ولو كان ذليلاً، وأنني لن أتركها وحدها، وأنني سأعوضها، ولو أن العمر لا يعوض أمًا عن ليلة واحدة نامت فيها وهي تفكر في ابنها وراء القضبان. كنت أركض تقريبًا. لم تكن قدماي تمشيان، بل كانت طفولتي كلها تهرول نحو الباب.

وصلتُ إلى الحي.

كل شيء بدا مألوفًا وغريبًا في الوقت نفسه. الحيطان نفسها، الدكاكين نفسها، وجوه لم تتغير كثيراً، وأطفال صاروا أطول قليلاً، ورجال ما زالوا جالسين في المقهى كأن الزمن دار حولهم ثم تعب وتركهم في أماكنهم. لكنني كنت أرى الحي بعين سجين خرج للتو؛ كل تفصيل كان يحمل معنى زائدًا. حتى الحجارة بدت لي حرة. حتى الكلب النائم قرب العجلة بدا أكرم مني، لأنه لم يدخل بابًا يُغلق عليه باسم القانون. مررتُ بسرعة. لم أرد أن أسلم على أحد. كنت أخاف من النظرات، من سؤال :خرجتي؟ من ابتسامة نصف شفقة ونصف فضول. كنت أريد أمي فقط. أريد أن أصل قبل أن يعترضني المجتمع بلسانه المسمُوم.

وقفت أمام الباب.

بابنا.

أو ما ظننته بابنا.

تلك الخشبة القديمة التي كنت أعرف خدوشها، وتلك العتبة التي جلست عليها في صغري، وذلك الجدار الذي كان يحمل رائحة بيتنا، كل شيء كان هناك، لكنه بدا كأنه لم يعد يعرفني. طرقت الباب. طرقة أولى خفيفة، ثم ثانية أقوى. قلبي كان يضرب

في صدري كما لو أنه يريد أن يسبقني إلى الداخل. كنت أرتب وجهي للقاء أمي. أردت ألا أبكي من اللحظة الأولى، لكن الدموع كانت جاهزة.

فتح رجل لا أعرفه.

وقف أمامي رجل غريب، بوجه عادي جدًا، وهذا ما زاد الرعب. لو خرج لي شيطان من الباب لكان الأمر مفهومًا أكثر. لكن أن يفتح رجل عادي باب بيتك، رجل ربما كان قد شرب الشاي قبل قليل، وربما ترك نعليه قرب المدخل، وربما كانت زوجته تطبخ في مطبخ أمك، فهذا شيء لا يتحمله العقل بسرعة. خلفه رأيت امرأة تتحرك في الداخل. سمعت صوت أوانٍ. شممت رائحة طعام لا يشبه رائحة أمي. البيت كان حيًا، لكنه لم يكن بيتنا. أو كان بيتنا وقد خاننا، كما يخون الوطن أبناءه حين يعودون فيجدون غرباء يسكنون ذاكرته.

قلت له:

شكون نتا؟

نظر إليّ باستغراب، لا بخوف. قال بهدوء بارد:

أنا ساكن هنا.

قلت:

ساكن هنا كيفاش؟ هاد الدار ديالنا.

قال:

كريناها من عند السمسار "الحنافي"، هادي شهرين.

شهرين.

الكلمة سقطت على رأسي كحجر. شهران، وأنا في السجن أعدّ الأيام وأتخيل أمي خلف هذا الباب. شهران، والبيت الذي كان آخر ما بقي لي في الدنيا صار عقد كراء جديد، ومفتاحًا في يد غريب، وسمسارًا اسمه الحنافي. كان الحنافي، في تلك اللحظة، يبدو لي لا كسمسار فقط، بل كممثل كامل لهذا الواقع: رجل يعرف كيف يبيع الفراغ، كيف يؤجر جرحًا، كيف يحول غياب الناس إلى فرصة. سألتُ بسرعة، وصوتي بدأ يتكسر:

وأمي؟

لم يجب الرجل فورًا. نظر إلى زوجته، ثم إليّ. رأيت على وجهه ذلك الارتباك الذي يسبق الجملة القاتلة، ذلك النوع من الصمت الذي يجعل القلب يفهم قبل الأذن. قال:

أمك... حسب ما سمعنا... ماتت بعد مرض عُضال. اللّه يرحمها.

لم أفهم.

أو فهمت بطريقة لم يتحملها جسدي.

الدنيا دارت بي. لم تعد الجدران واقفة. الباب، الرجل، المرأة، الحي، السماء، كل شيء دار بسرعة، كأن العالم لم يعد مكانًا بل دوامة. ماتت؟ من ماتت؟ أمي؟ لا. أمي لا تموت وأنا في السجن. أمي لا تغادر قبل أن تراني. أمي وعدتني، ولو لم تنطق الوعد، أنها ستبقى هناك، في آخر طريق العالم، تنتظرني بيدين متعبتين ودعاء لا ينقطع. أمي لا يحق لها أن تموت هكذا، في غيابي، دون أن أقبل يدها، دون أن أسمع صوتها آخر مرة، دون أن تقول لي :سمحت ليك.

هجمت على الرجل.

لم أعد أرى فيه رجلًا. صار وجهه بابًا للخبر، وكل غضبي توجه إليه لأنه كان أول فم نطق بالمستحيل. أمسكتُ به من ثيابه وصرخت:

واش نتا أولد القحبة كضحك عليّا؟ فين مي؟ فين مي؟ قول فينها...

لم يبدِ الرجل رد فعل قويًا. ربما كان خائفًا، وربما كان يعرف أنني لا أهاجمه هو، بل أهاجم الخبر. زوجته صرخت قليلاً من الداخل. الجيران بدأوا يطلون. وأنا كنت أشد على قميصه كمن يريد أن يستخرج من صدره أمي، لا جوابًا. كنت أريد أن يقول لي إنه أخطأ، أن هناك أمًا أخرى، أن الاسم اختلط، أن أمي في السوق، في المستشفى، عند خالتي، في أي مكان، المهم ألا تكون تحت التُراب. لكن وجهه ظل عاديًا، والعادي حين يحمل خبراً كهذا يصير إجرامًا.

ثم جاءت الحاجة مريم.

كانت جارتنا، امرأة عرفتنا منذ سنين، تعرف صوت أمي في الصباح، تعرف متى كانت تنشر الغسيل، وتعرف بكاءها حين دخلت السجن، على الأرجح أكثر مما أعرف أنا. اقتربت ببطء، ووضعت يدها على كتفي. يد عجوز لكنها ثابتة. قالت بصوت هادئ، ذلك الهدوء الذي لا يأتي من عدم الألم، بل من كثرة ما رأى الإنسان من جنائز حتى صار يعرف أن الصراخ لا يرد أحدًا:

سمع أولدي... الباركة فراسك. الواليدة ماتت. الله يرحمها ويصبرك.

الواليدة ماتت.

هذه المرة لم تأتِ الجملة من فم غريب. جاءت من امرأة تعرفنا. من الجارة التي لا مصلحة لها في الكذب. من صوت الحي نفسه. هنا انتهت كل إمكانيات الإنكار. أحيانًا لا يقتلنا الخبر حين نسمعه أول مرة، بل حين يؤكده شخص نثق أن الدنيا لا تكذب على لسانه. تركت قميص الرجل. يداي ارتختا. شعرت أن جسدي كله صار فارغًا، كأن أحدًا فتح في صدري بابًا وسحب منه الهواء والعظام والدم، وترك جلدي واقفًا وحده.

كانت الحاجة مريم تقول شيئًا.

كانت تقول إن فراق الأم وجع لا يندمل، وإن موتها كسرة حياة، وعمود فقري لا يشعر به إلا من عاناه، وإن رحيلها غياب للحنان، والسند، والدعوة الصادقة. كانت تتكلم بنبرة المواساة التي تحفظها النساء المغربيات كما يحفظن وصفات الخبز والدواء. لكنني لم أكن أسمع. أو كنت أسمع كلماتها من بعيد، كأنني تحت الماء. بدأ طنين في أذني. طنين حاد، أبيض، مستمر، كأن العالم كله تحول إلى نحلة ضخمة عالقة داخل رأسي. رأيت شفتيها تتحركان، ورأيت الناس يتجمعون، ورأيت الرجل الغريب يبتعد قليلًا، ورأيت باب

البيت مفتوحًا، لكن كل شيء كان بلا صوت حقيقي. فقط الطنين. ثم صورة أمي.

أمي في المطبخ.

أمي تحمل قفة.

أمي تناديني.

أمي تضع يدها على رأسي وأنا صغير.

أمي تبكي يوم اعتقلوني.

أمي ربما جاءت لزيارتي أول مرة، وربما عادت مكسورة، وربما مرضت، وربما نادت اسمي في الليل، وربما سألت عني حتى آخر رمق، وربما ماتت وهي تظن أنني لن أخرج إلا بعد أن يفوت الأوان. وهذا هو الذي قتلني: ليس موتها فقط، بل احتمال أنها ماتت وهي تنتظرني. أن آخر ما حملته في قلبها لم يكن وجهي أمامها، بل صورتي خلف القضبان. أنني لم أكن عند رأسها حين ارتفع نفسُها الأخير. أنني لم أسمع وصيتها. أنني لم أقل لها :سمحي ليا آ مي . أنني كنت في السجن أظن أن العقوبة هي الجدران، ولم أعرف أن العقوبة الحقيقية كانت تحدث خارج الجدران، في جسد أمي وهو ينطفئ.

أغمي عليّ.

أو سقطت.

لا أعرف.

قالوا لاحقًا إنني انهرت أمام الباب، وإن الحاجة مريم صرخت في الناس أن يحضروا الماء، وإن أحدهم قال :راه خرج من الحبس ومصدُوم، وإن الرجل الذي سكن بيتنا حاول أن يساعد رغم أنني شتمته قبل لحظات. لكنني، في الإغماء، لم أكن هناك. كنت في مكان بين الوعي والفقد، مكان يشبه الحُلم، لكنه لم يكن حلمًا جميلًا. كنت أتحدث. كانوا يقولون إنني كنت أتمتم بكلمات كثيرة، كأن روحي، وقد عجزت أن تراها في الدنيا، بدأت تكتب لأمي رسالة وهي خارجة من جسدي.

قلت وأنا مغمى عليّ، أو هكذا شعرت:

يا روحًا طاهرة تهيم من حولي، يا حضنًا دافئًا كم شكوت إليه همّي، يا يدًا كانت تمسح رأسي فيسكتُ العالم قليلًا، يا قلبًا كان يستقبلني في كل أوقاتي، حين أعود فرحًا، وحين أعود منكسرًا، وحين أعود مخطئًا، وحين أعود بلا كلمة. بفراقك يا أمي فارقني الأمان. لم أفقد شخصًا، بل فقدت الجهة التي كان العالم يصير منها

محتملاً. أحسست بغربة في الزمان والمكان، كأن كل مدينة لم تعودي فيها منفى، وكل بيت لا يسمع صوتك فندق بارد، وكل صباح لا يبدأ بدعائك صباح ناقص، لا يستحق أن يسمى صباحًا.

ذهبتِ، وذهب معك كل الحنان.

لا أعرف هل يسمع الموتى، ولا أعرف هل تصل الكلمات إلى القبور، ولا أعرف هل الأرواح تبقى قريبة من الذين أحبوها، لكنني أشعر بروحك العطرة تظللني في ذهابي وإيابي. أشعر أنك تتبعينني، لا كخيال مخيف، بل كظل رحيم. أنت يا حبيبتي دائمًا معي، لكن معي بطريقة تؤلم أكثر مما تواسي. لأن حضور الميت في القلب ليس حضورًا كاملاً، بل جرحًا يأخذ شكل الحضور. منذ رحيلك يا أمي والصمت يعذبني، يرهقني، يزيد آهاتي، ولا أجد من أبوح له بما في داخلي غير دموعي. ونسيانك لا أقدر عليه. كيف ينسى الإنسان أصل صوته؟ كيف ينسى اليد التي رفعته من العدم إلى النور؟ كيف ينسى من كانت تسقيه عمرها ولا تقول عطشت؟

فراقك أصعب مما توقعت.

كنت أعرف أن الأم تموت. كل الناس يعرفون هذه الحقيقة الباردة. نسمعها في الجنائز، نراها في عيون الآخرين، نردد :اللّه

يصبرهم، ثم نعود إلى بيوتنا. لكن لا أحد يعرف موت الأم حتى تموت أمه. قبل ذلك، هو خبر في العالم. بعد ذلك، يصير العالم كله خبراً سيئًا. وإن ألمي يا أمي ليفوق وصفي، وإن قلمي ليختنق في كفي، وإن حزني لا يحيط به حرفي. آه يا أمي، يا وجعي، يا ألمي، يا اسمي الأول قبل أن أتعلم اسمي، يا خبز روحي، يا سجادة دعائي، يا ستر اللّه فوق ضعفي.

رحلت عنا سريعًا، وكأن حكاية رحيلك كانت حلمًا، والوداع كان وهمًا. كيف متِّ وأنا لم أرك؟ كيف أغمضت عينيك ولم تكن يدي على جبينك؟ كيف برد جسدك ولم أكن هناك لأصرخ في وجه الموت؟ اطمئني يا أمي، نحن بموتك مصدقون، أو نحاول أن نصدق، ونحن على فقدانك صابرون محتسبون، أو نحاول أن نتعلم الصبر كما يتعلم الطفل المشي بعد كسر في ساقيه. لكن أي صبر هذا؟ الصبر على الأم ليس فضيلة سهلة، بل جرح طويل يرتدي ثوب الرضا كي لا يفضح صاحبه أمام الناس.

أمي، يا من انتظرتِني أيامًا وليالي.

يا من جعلتِ نبضي جار قلبك تسعة أشهر.

يا من تحملتِ الألم فقط لأجل أن أبصر النور، ثم كبرتُ أنا في ذلك النور حتى ظننت أنه حقي، ونسيت أن النور الأول كان من دمك وتعبك وسهرك. يا من أغمضتِ عينيك ورحلتِ، هل ناديتِ اسمي قبل النهاية؟ هل سألتِ عني؟ هل قلتِ: ولدي فين؟ هل كذبت عليك النساء وقالوا لك سأخرج قريبًا كي تموتي مطمئنة؟ أم عرفتِ أنني لن أصل؟ هذه الأسئلة ستأُكلني، يا أمي، أكثر مما أكلني السجن. لأن السجن كان له باب، أما هذا الندم فلا باب له.

أنت من كنتِ تعلمينني الحنان، والعطف، والصبر، والصدق. كنتِ تظنين أنك تربين ولدًا، ولم تعرفي أنك كنتِ تبنين آخر ما سيبقى منه حين ينهار كل شيء. لقد اشتقت لرؤية وجهك المضيء. آخٍ كم أفتقد حضنك الدافئ، وكم أشتاق إلى مسحة يدك على رأسي. كانت تذهب كل أوجاعي. كنت علاج روحي، يا أمي. لم تكوني طبيبة، لكنك كنتِ تضعين يدك فيسكت المرض قليلاً. لم تكوني فيلسوفة، لكن جملة واحدة منك كانت تهزم خوفي أكثر من مئة كتاب. لم تكوني غنية، لكنك كنت تعطينني ما لا يملكه الأغنياء: أن أعود فأجد مكانًا ينتظرني بلا شروط.

أمي حبيبتي.

لقد اقترب عيد الأم وأنتِ عني بعيدة. وما أقسى الأعياد حين تأتي بعد موت من كان يعطيها معناها. في كل عيد سيبيع الناس الورود، وستُكتب الرسائل، وسينشر الأبناء صور أمهاتهم، وسأكون أنا واقفًا في الجانب الآخر من الحياة، أحمل وردة لا أعرف أين أضعها. كم أشتاق لحضنك الدافئ. أتمنى لو كنتِ على وجه الأرض لأهديك قلبي وعمري، ولو طلبتِ مني أن أضع رأسي عند قدميك إلى آخر العمر لفعلت. لكننا لا نفهم قيمة الركوع للحب إلا حين لا يبقى من نركع له. كم اشتقت إليك.

أمي، لقد رحلتِ بجسدك عني، وروحك لم تغادر روحي. لن تجد قلبًا يستقبلك بكل أوقاتك كقلب أمك، فإن رحلت فليكن اللّه في عونك. نعم، الآن عرفت معنى اليتم الحقيقي. ليس اليتيم من ماتت أمه وهو صغير فقط، بل من ماتت أمه في داخله وهو كبير، فاكتشف أن كبره كله كان تمثيلية. حين تموت الأم يعود الرجل طفلًا، لا يهم عمره، ولا لحيته، ولا صوته الخشن، ولا سجنه، ولا ذنبه. يعود طفلًا يبحث عن حضن لم يعد له عنوان.

سلامًا على عينك النائمة.

سلامًا على رائحتك المختبئة في جوف الأرض.

سلامًا على حنيني المستمر إليك.

سلامًا على يديك اللتين خبزتا لنا الخبز ومسحتا الدمع وحملتا القلق دون أن تشتكيا كثيراً.

سلامًا على صوتك حين كان يقول اسمي وكأن الاسم، من فمك، صلاة لا لفظًا.

ماتت من ضحّت، وتحملت، وعانت. ماتت من تعبت وتحملت لأجلي. ماتت، وأنا أبكي عليها دمًا بدل الدمع. أماه، يا أماه، ما أحوج القلب الحزين لدعوة. كم كانت دعواتك تمنحني الأمان. لم أكن أعرف أنني أعيش محروسًا بها. كنت أظن أنني أمشي وحدي، فإذا بي كنت أمشي تحت سقف دعائك. الآن، وقد سقط السقف، عرفت كم كان العالم موحشًا من الأصل.

لكل شخص عابر مرّ من هنا، كن كالغيث، اروِ قبر أمي بدعائك.

كيف نخفف اشتياقنا لأرواح رحلت دون عودة؟

لا جواب.

لا أحد يجيب عن هذا السؤال. الناس يقولون: الوقت كفيل. يكذبون. الوقت لا يشفي، الوقت يعلّم الجرح كيف يتكلم بصوت

أخفض. الفقد لا يزول، بل يتربى معنا. يصبح جزءًا من مشيتنا، من طريقة نظرنا إلى الأمهات في الشارع، من صمتنا حين نسمع كلمة مي، من انكسارنا حين نرى امرأة عجوزًا تحمل قفة، من خوفنا حين نحب أحدًا لأننا نعرف أن الحب قابل للدفن.

حين أفقتُ، كنت في بيت الحاجة مريم.

كان وجهي مبللًا، لا أعرف بالماء أم بالدموع. رأيت وجوهًا حولي. أحدهم قال :الحمد للّه فاق .آخر قال :مسكين، جاتو قوية . الحاجة مريم كانت جالسة قرب رأسي، تمسح جبيني بقطعة قماش. فتحت عينيّ وسألتها بصوت لا يشبه صوتي:

فين قبرها؟

لم تسألني هل أستطيع الوقوف. لم تقل لي ارتح. عرفت أن الميت حين يسمع بموت أمه لا يحتاج إلى راحة، بل إلى قبر. قالت:

غادي نديك عندها، ولكن بشوية على راسك.

نهضت كمن يقوم من تحت ركام. لم أكن قد خرجت من السجن إلا قبل ساعات، وها أنا أدخل سجنًا آخر، أوسع من الأول وأقسى. السجن الأول كان له مدة: ستة أشهر. أما هذا السجن، سجن الأم حين تغيب، فلا حكم له ولا عفو ولا نهاية. مشيت معها

نحو المقبرة، وكل خطوة كانت تسألني: أين كنت حين احتاجت إليك؟ كنت أريد أن أجيب: كنت مسجونًا. لكن الجواب لم يكن يرضيني. السجن لم يكن عذرًا كاملًا. كان جزءًا من المأساة. كنت مسجونًا لأنني أردت الهرب من وطن لم يترك لي طريقًا، وأمي ماتت في ذلك الوطن نفسه، وحيدة، فقيرة، مريضة، بينما كنت أنا خلف الجدار أعدّ أيام خروجي.

حين وصلنا إلى قبرها، لم أعرفه أولًا.

كان قبراً مثل القبور. تراب، حجر، صمت. يا للمهانة. أمي، التي كانت عالمًا كاملًا، صارت بقعة تراب لا تميزها عين الغريب. أين صوتها؟ أين رائحتها؟ أين يدها؟ أين مطبخها؟ أين غضبها؟ أين دعاؤها؟ أين عيناها؟ كيف يمكن لهذا التراب القليل أن يحمل امرأة حملتني تسعة أشهر، وحملت خوفي سنوات، وحملت اسمي في دعائها حتى آخر نفس؟ جلست عند القبر. لم أبكِ في البداية. كنت أنظر فقط. ثم وضعت يدي على التراب، وفجأة انفجرت.

قلت:

آ مي... خرجت.

خرجت من الحبس، ولكن ما لقيتكش.

خرجت باش نجي عندك، لقيتك مشيتي.

خرجت من باب الحديد، دخلتيني لباب التراب.

يا مي، سمحي ليا.

سمحي ليا حيث ما كنتش حدّاك.

سمحي ليا حيث خليتك تموتي وانتي كتسولي عليّا.

سمحي ليا حيث سرقت باش نهرب، وهربتي نتي قبلي من الدنيا كاملة.

لم تُجب.

القبر لا يجيب، وهذا أقسى ما فيه. نحن نذهب إلى القبور كأنها أبواب، لكنها من جهتنا جدران. نتكلم، نبكي، نعتذر، نقرأ الفاتحة، نضع الماء على التراب، ثم ننتظر شيئًا لا يأتي. لا يد تخرج، لا صوت يقول :سمحت ليك، لا أم ترفع رأسها لتؤنبنا ثم تعانقنا. فقط تراب. وصمت. وريح صغيرة تمر بين القبور كأنها تحمل رسائل لا نعرف قراءتها.

في تلك اللحظة، فهمت أن الوطن لم يسرق مني المال فقط.

سرق مني وداع أمي.

وهذه جريمة لا تُغتفر. من يستطيع أن يعيد لي اللحظة التي كنت يجب أن أجلس فيها قرب رأسها؟ من يستطيع أن يعيد لي آخر نظرة؟ من يستطيع أن يعيد لها صوتي؟ الدولة التي سجنتني ستقول إنني دفعت ثمن جريمتي. لكن من يدفع ثمن الجريمة التي ارتكبها الفقر في حقنا؟ من يدفع ثمن الزنزانة التي منعت ابنًا من أن يدفن رأسه في حضن أمه قبل موتها؟ من يدفع ثمن أن يموت الفقراء في صمت، ثم تُؤجر بيوتهم، وتُطوى ملابسهم، ويعود العالم إلى تجارته الباردة؟

نظرت إلى القبر وقلت في داخلي:

هكذا يبدأ زمن العبيد حقًا.

ليس حين يدخل الشاب السجن.

بل حين يخرج منه فلا يجد أمه.

حين يكتشف أن العقوبة لم تكن في القضبان، بل فيما حدث خارجها وهو عاجز.

حين يعرف أن الفقر لا يسجن الجسد فقط، بل يسجن الوداع، يسجن الحنان، يسجن آخر قبلة على جبين أم مريضة.

حين يصبح الإنسان غريبًا عن بيته، وعن أمه، وعن قبرها، وعن نفسه.

في تلك اللحظة، لم أعد ذلك الشاب الذي سرق ليهرب. صار في داخلي شيء آخر. شيء أسود، لكنه واعٍ. لم يكن حقدًا فقط، بل معرفة. معرفة أن هذا العالم لا يرحم من لا يملك. وأن الطيبين يموتون في الغرف الضيقة، وأن أبناءهم يسمعون الخبر من غرباء عند باب كان يومًا بيتهم. وأن الأمهات لا يقتلهن المرض وحده، بل الانتظار، والقهر، وغياب الأبناء، والكراء، والخوف من الغد، والدعاء الطويل الذي لا يجد دولة تستحي.

وقفت عند قبرها حتى بدأ المساء ينزل.

الحاجة مريم قالت:

يلا أولدي، برد الحال.

نظرت إليها. أردت أن أقول إن البرد الحقيقي بدأ حين قالوا لي ماتت. لكنني لم أقل. مسحت وجهي، وقبلت التراب، لا لأن التراب أمي، بل لأنه آخر شيء يلمسها. ثم قلت:

غادي نرجع آ مي.

ولأول مرة في حياتي، عرفت أن العودة قد تكون مستحيلة حتى حين تعرف الطريق.

٣٣

بدأتُ أبحث عن عمل.

لم يكن البحث عن العمل، في حالتي، بحثًا عن مستقبل، ولا عن كرامة كما يقولون في نشرات الأخبار، ولا عن تحقيق الذات كما يكتب أبناء الطبقات المطمئنة في سيرهم الذاتية. كان البحث عن العمل بحثًا عن خبزة، عن سقف، عن مكان لا أنام فيه في الشارع، عن جسد لا يتحول في الليل إلى مِلكية عامة للبرد والكلاب والسكارى والشرطة. كنت قد خرجت من السجن بلا شيء تقريبًا. لا بيت، لأن البيت الذي تركته صار بيتًا لغريب. لا أم، لأن أمي دخلت في تراب لا يفتح أبوابه. لا مال، لأن الفقير إذا سُجن لا يخرج فقط بعقوبة في سجله، بل يخرج وقد سرق السجن منه حتى احتمالاته الصغيرة. ولا عائلة، لأن العائلة عندنا كلمة جميلة حين تُقال في الأعراس والجنازات، لكنها في ساعة الحاجة تتحول إلى غرباء يحملون دمك ولا يحملون وجعك.

كنت وحيدًا.

والوحدة بعد موت الأم ليست مثل أي وحدة. حين تكون أمك حيّة، تستطيع أن تكون فقيراً، مذنبًا، مكسورًا، مطرودًا من العالم،

ومع ذلك يبقى هناك مكان واحد تقول فيه: سأذهب إلى أمي. أما حين تموت، يصبح العالم بلا جهة أخيرة. يصبح الإنسان مثل كيس بلا رباط، كل ريح قادرة على بعثرته. كنت أمشي في الشوارع وأحس أنني لست عابرًا فيها، بل بقايا إنسان يبحث عن دليل على أنه لم ينتهِ بعد. الجوع كان يرافقني ككلب أسود. ليس الجوع الشعري الذي يذكره الكتاب حين يريدون مدح الفقراء من بعيد، بل الجوع الذي يجعل رائحة الخبز إهانة، ويجعل دكان البقال محكمة، ويجعل الدرهم حلمًا.

لم يكن عندي حتى درهم أشتري به خبزة.

هذه الجملة تبدو بسيطة، لكنها تلخص سقوط الإنسان من كل خطاب. حين لا تملك ثمن الخبز، لا يعود الوطن فكرة، ولا الدين عزاءً كافيًا، ولا الفلسفة طعامًا، ولا الكرامة موقفًا رومانسيًا. تصبح الكرامة نفسها قابلة للمساومة أمام مخبزة. تسأل نفسك: هل أطلب من أحد؟ هل أسرق مرة أخرى؟ هل أنام حتى يمرّ الجوع؟ هل أبيع شيئًا؟ لكن ماذا يبيع من لم يبقَ له شيء؟ كنت أفتش في جيبي كمن يفتش في قبر، فلا أجد إلا فراغًا وقطعة ورق قديمة ورائحة السجن. حتى ملابسي كانت تحملني لا أرتديها؛ قميص متعب، سروال فقد

شكله، حذاء كأنه خرج معي من زنزانة ولم يصدق بعد أن الطريق صار مفتوحًا.

العائلة؟

هؤلاء، في تلك اللحظة، لم يعودوا عائلة في نظري، بل أسماء على هامش الدم. ولاد القحاب، قلتها في داخلي أكثر من مرة، لا شتيمة فقط، بل حكمًا عاطفيًا من رجل تُرك وحده حين كان يحتاج إلى يد واحدة. أين كانوا حين ماتت أمي؟ أين كانوا حين خرجت؟ أين كان ذلك العم القواد الذي كان يتحدث كثيراً عن الرجولة؟ أين تلك الخالة التي كانت تبكي في المناسبات وتردد أن العائلة سند؟ أين أبناء العمومة الذين يظهرون حين يكون هناك ميراث أو عرس أو صورة جماعية؟ لم يسأل عني أحد. لم يطرق أحد كتفي. لم يقل أحد: آجي عندي حتى توقف على رجليك .وكأن السجن لا يغلق على الإنسان وحده، بل يغلق معه كل أبواب الناس الذين كانوا يدّعون القرب منه.

ربما كانوا يخافون.

ربما كانوا يقولون بينهم: خرج من الحبس، اللّه يستر.

ربما كانت جريمتي الصغيرة كافية لتجعلهم يغسلون أيديهم مني، كما لو أنني مرض مُعدٍ. المجتمع لا يكتفي بأن يعاقبك مرة واحدة. الدولة تسجنك، والناس يسجنون صورتك، والعائلة تنفيك من ذاكرتها كي لا تتلوث بظلك. تخرج من السجن فتجد نفسك أمام سجون أخرى، أكثر أناقة وأقل اعترافًا بنفسها: سجن السمعة، سجن النظرة، سجن السؤال الخافت :شنو دار؟ علاش دخل؟ واش تبدل؟ واش يقدر يسرقنا؟ في السجن الحديدي على الأقل تعرف أنك مسجون. أما في سجن الناس، فيبتسمون لك من بعيد وهم يغلقون الأبواب في وجهك.

بدأت أبحث عن أي عمل.

أي عمل كيفما كان.

لم أكن أطلب مكتبًا، ولا راتبًا محترمًا، ولا ضمانًا اجتماعيًا، ولا كرامة كاملة، ولا وظيفة تليق بشاب كان يومًا يحلم بالهجرة. كنت أبحث عن عمل كما يبحث الغريق عن خشبة، ولو كانت خشبة عفنة. حمال، نادل، حارس ليلي، عامل في ورشة، مساعد بناء، منظف، بائع متجول، أي شيء. كنت أطرق الأبواب، وأدخل المحلات، وأسأل الناس. في البداية كنت أحاول أن أبدو طبيعيًا.

أقول: كنقلب على خدمة .يسألني صاحب المحل :فين كنتي خدام قبل؟ أرتبك. إن كذبتُ، انكشف الكذب بسرعة. وإن صدقتُ، أغلق الباب قبل أن يغلقه بيده.

كل من يسمع أنني دخلت السجن ينفر مني.

ألهذه الدرجة؟

كنت أرى تغير الوجه في اللحظة نفسها. قبل أن يعرفوا، كنت شابًا محتاجًا للعمل. بعد أن يعرفوا، أصير خطرًا. كلمة "السجن" كانت تخرج من فمي مثل رائحة كريهة لا أستطيع منعها. بعضهم يقول بلطف كاذب: خلي رقمك إلى كانت شي حاجة نعيطو ليك . وبعضهم يختصر :ما كاين والو دابا .وبعضهم لا يخفي الاشمئزاز. وآخرون ينصحونني بنبرة من يعتقد أن النصيحة خبز :خاصك تبدا صفحة جديدة آ خويا .صفحة جديدة؟ بأي قلم؟ على أي ورق؟ في أي غرفة؟ الإنسان لا يبدأ صفحة جديدة إذا كان الكتاب كله في يد غيره.

كنت أقول في داخلي: دخلت السجن لمبرر، لغاية، ولو كانت غاية خاطئة، لكنها لم تكن شيطانية. دخلت لأنني أردت أن أجمع المال، أن أهرب، أن أنقذ أمي من الفقر والجوع، أن أخرجها من بيت

الكراء ومن الذل ومن انتظار قفة الشهر. نعم، الطريق كان حرامًا وخطأ، لكن ماذا عن الطرق التي أُغلقت في وجهي قبل ذلك؟ ماذا عن المدرسة التي لم تمنحني شيئًا سوى شهادة لا تُطعم؟ ماذا عن الدولة التي تقول للشباب اصبروا ثم تبيع مستقبلهم في المزادات؟ ماذا عن المجتمع الذي يمُجد الغني ولو كان لصًا كبيراً، ويحتقر السارق الصغير لأنه لم يسرق بما يكفي ليصير محترمًا؟

أهذه هي المؤسسة السجنية التي تدعي إعادة الإدماج؟

إعادة الإدماج.

يا لها من عبارة مُضحكة حين تخرج من فم موظف بارد. في السجن، كانوا يحدثوننا أحيانًا عن الإدماج كما يتحدثون عن دواء لا يوجد في الصيدليات. يقولون إن السجن مؤسسة إصلاح، وإن الهدف أن نعود إلى المجتمع مواطنين صالحين. لكنهم لا يقولون لك كيف تعود إلى مجتمع لا يريدك. لا يقولون لك إن بطاقة السوابق ستكون ظلًا يمشي أمامك. لا يقولون لك إن صاحب العمل سيفضل جائعًا بلا ماضٍ على جائع خرج من الزنزانة. لا يقولون لك إن الأسرة ستخجل منك، وإن الجيران سيتهامسون، وإن كل باب ستطرقه سيطلب منك شهادة براءة لا يمنحها أحد.

المؤسسة تقول إنها تعيد إدماجك، ثم تطلقك في الشارع بلا مال، بلا بيت، بلا عمل، بلا أم، وتقول لك: اندمج.

بماذا أندمج؟ بجُرحي؟

كنت أمشي نهارًا بحثًا عن عمل، وأعود مساءً إلى لا مكان. أحيانًا أنام قرب مسجد، أحيانًا في زاوية بعيدة من محطة، أحيانًا عند شخص يعرفني فيسمح لي بليلة ثم يبدأ في اليوم التالي بالتلميح : آش ناوي دير؟ كأن النية وحدها تصنع سقفًا. كنت أغسل وجهي في مراحيض المقاهي حين أستطيع، وأحاول ألا أنظر كثيراً في المرآة. المرآة لا ترحم من خرج من السجن وفقد أمه. كانت عيناي غائرتين، ولحيتي غير مرتبة، ووجهي يحمل تلك الشحوب التي تجعلُ الناس يعرفون أن شيئًا ما فيك انكسر حتى لو لم يعرفوا اسمه.

وفي يوم من تلك الأيام التي لا لون لها، حدثت المصادفة.

التقيتُ بأحد الأصدقاء القدامى، كان يدرس معي في المرحلة الإعدادية. رأيته أولاً من بعيد، ولم أكن متأكدًا أنه سيتعرف عليّ. كنت قد تغيرتُ، أو هكذا كنت أشعر. السجن لا يضيف سنوات فقط، بل يغير مادة الوجه. لكنه رآني، توقف، حدق لحظة، ثم صرخ باسمي كأنني لم أكن ميتًا في ذاكرة العالم.

اقترب مني وعانقني.

عانقني بقوة، دون أن يتردد، دون أن يسأل أولًا أين كنت، دون أن يترك بيننا تلك المسافة التي يضعها الناس بينهم وبين الخارجين من السجن. قال:

فين غبورك آ خويا؟ توحشناك.

توحشناك.

يا اللّه.

كلمة بسيطة، لكنها كادت تكسرني أكثر من خبر موت أمي. لأن الإنسان حين يُنبذ طويلًا، حين ينظر إليه الناس كخطر أو عار أو خطأ، تكفيه كلمة واحدة تقول له إنه ما زال موجودًا في ذاكرة أحد. لأول مرة منذ خرجت، شعرت أنني لست فقط صاحب سوابق، ولا ابن امرأة ماتت، ولا رجلًا بلا بيت، ولا بقايا سجين. شعرتُ أن أحدهم التفت إليّ كإنسان. العناق، في تلك اللحظة، كان وثيقة وجود. كان يقول لي: أنت لم تمُحَ تمامًا.

سألني عن حالي، عن غيابي. لم أعرف كيف أختصر الخَراب. قلت له: قصة طويلة .قال :حكي، عندي الوقت .وهذه أيضًا كانت نِعمة. في زمن السرعة، أن يقول لك شخص "عندي الوقت" يعني

أنه يمنحك جزءًا من حياته، لا أذنه فقط. مَشينا قليلًا، ثم قلت له كل شيء تقريبًا. حكيتُ له عن السرقة، عن السجن، عن الزنزانة، عن أمي التي لم تزرني، عن خروجي، عن البيت الذي صار لغيرنا، عن خبر موتها، عن القبر، عن البحث عن العمل، عن الجوع، عن الناس الذين يغيرون وجوههم حين يسمعون كلمة السجن. كنت أتكلم بسرعة أحيانًا، وأتوقف أحيانًا. بعض الجمل لم تخرج كاملة. لكنه لم يقاطعني. كان يسمع، ووجهه يتغير ببطء، لا بشفقة رخيصة، بل بغضب مكتوم.

قال لي:

يالاه نشربو قهوة ونتكلمو فموضوع الخدمة.

ضحِكتُ بمرارة. قلت له بصراحة، لأنني كنت قد تعبت من تمثيل أنني أملك شيئًا:

ما عنديش فلوس القهوة. ما عنديش حتى باش نشري سيجارة من النوع الرديء.

قلتُ ذلك وأنا أشعر بعار غريب، رغم أن الجوع ليس عارًا. لكن الفقر يجعل الإنسان يعتذر عن حاجته كأنها جريمة. نظر إليّ وقال ببساطة:

لا عليك. راه أنا اللي عارضك.

لم يبالغ. لم يقل: حشومة عليك تقول هكا .لم يعطني درسًا في الكرامة. فقط تكفل بالأمر وكأنه طبيعي. دخلنا المقهى. جلست على كرسي شعرت أنه فخم فقط لأنه ليس أرضًا باردة. جاء النادل. طلب هو قهوتين. طلب لي أيضًا سيجارة، أو أعطاني واحدة من علبته. حين وضعتها بين أصابعي، شعرت بتناقض حقير: أنا لا أملك ثمن الخبز، لكنني أحتاج إلى دخان كي لا أنهار. هكذا يفعل الفقر بالإنسان؛ يجعله يتشبث بأشياء تؤذيه لأنها تمنحه وهم السيطرة على لحظة.

جلسنا.

تحدثنا قليلاً عن الأيام القديمة. الإعدادي، الأساتذة، الساحة، مباريات الكرة، الوجوه التي تفرقت. كان يسترجع تلك الفترة كأنها ذكريات بريئة، أما أنا فكنت أراها الآن بداية الطريق إلى الخراب. كم كنا صغارًا ونحن نعتقد أن المدرسة ممر إلى الحياة. لم نكن نعرف أن المدرسة، بالنسبة لأمثالنا، كانت غالبًا قاعة انتظار كبيرة؛ ننتظر فيها أن يكبر الفقر معنا، أن يكتشف كل واحد أين سيُرمى. بعضنا صار حارسًا، بعضنا حراقًا، بعضنا تاجر مخدرات، بعضنا

مات في البحر، بعضنا دخل السجن، وبعضنا، مثل هذا الصديق، وجد طريقة ما للنجاة أو للتظاهر بها.

سألته عن عمله. لم يجب مباشرة. قال:

كاين شي حاجة ممكن تعاونك، ولكن خاصك تكون راجل.

قلتُ له:

راجل؟ السجن كامل كان كيعلمنا هاد الكلمة. شنو المقصود بها دابا؟

ابتسم ولم يوضح. قال فقط:

ما تخافش. غدا نتلاقاو هنا فهاد الوقت. وغادي نهضرو مزيان.

عند المغادرة، أخرج بعض المال ووضعه في يدي. حاولت أن أرفض، ليس لأنني لا أحتاجه، بل لأن الكرامة، حتى وهي جائعة، تحب أن تمثل قليلاً. قال:

شد. غير بدل حوايجك، سير للحمام، وكُول شي حاجة. غدا نلتاقاو.

نظرت إلى المال في يدي. لم يكن كثيراً بالنسبة لمن يملكون، لكنه بالنسبة لي كان أكثر من ورقة. كان اعترافًا بأنني ما زلت أستحق أن أذهب للحمام، أن أبدل ملابسي، أن أجلس غدًا أمام شخص دون

أن أشعر أن رائحة السجن تخرج من مسامي. المال، حين يُعطى لفقير بإهانة، يصير صفعة. وحين يُعطى بصداقة، يصير جسرًا. هو أعطاني جسرًا صغيراً إلى الغد.

تلك الليلة، أكلتُ.

لا أذكر ماذا أكلت بالضبط، ربما خبزًا وشيئًا بسيطًا، لكنني أتذكر أن أول لقمة كادت تبكيني. الإنسان لا يبكي فقط حين يجوع، بل حين يأكل بعد أن اقترب من إذلال الجوع. ذهبت إلى الحمام. الماء الساخن على جسدي كان كأنه يحاول غسل السجن، لكن السجن لا يخرج بالماء. ومع ذلك شعرت أن طبقة من العتمة تسقط. رأيت بخار الحمام يصعد، وتذكرت أمي. كانت دائمًا تقول لي: دخل للحمام، بدل حوايجك، الإنسان خاصو يبقى نقي ولو الدنيا كحلة. بكيت هناك دون أن يراني أحد، بين البخار والرجال العراة والصابون الرخيص. بكيت لأن أمي لم ترني أعود نظيفًا. بكيت لأن صديقي القديم فعل لي ما لم تفعله العائلة. بكيت لأنني، رغم كل شيء، كنت ما زلت أتمسك بخيط رفيع اسمه الغد.

جاء الغد.

استيقظت مبكرًا، أو بالأحرى لم أنم جيدًا. كنت أفكر في العمل الذي تحدث عنه. ما هو؟ هل سيكون في ورشة؟ في مقهى؟ في مخزن؟ حراسة؟ هل سيقبلني أحد أخيرًا؟ كنت أخاف أن يكون الأمل فخًا. الفقير لا يفرح بسرعة، لأنه يعرف أن الفرح إذا سقط عليه فجأة قد يكون خُدعة. لبست أفضل ما استطعت. لم يكن لدي لباس جيد، لكنني بدوت أقل خرابًا. ذهبت إلى المكان نفسه. وجدته ينتظرني.

ابتسم وقال:

بان عليك تبدلتي شوية.

قلت:

غير الماء دار خدمتو.

قال:

مشِينا.

سألته:

إلى أين؟

قال:

حتى لتما وتعرف. غير يالاه.

توقفت لحظة. في داخلي ارتفع صوتٌ حذر. السجن علّمني أن الجملة التي لا تشرح وجهتها قد تخفي شيئًا .حتى لتما وتعرف . إلى أين يأخذني؟ عمل حقيقي؟ شيء مشبوه؟ تجارة؟ تهريب؟ سرقة أخرى؟ هل سأعود إلى الطريق نفسه الذي خرجت منه بالكاد؟ لكنني نظرت إلى جيبي، فتذكرت الفراغ. نظرت إلى الشارع، فتذكرت أن لا مكان لي. تذكرت أمي في قبرها، وتذكرت أنني وعدتها ألا أضيع. لكن الضياع أحيانًا لا يبدأ بخيار شرير، بل بخيار وحيد.

مشيت معهُ.

كنا نعبر الشوارع، وأنا أراقب الوجوه، المحلات، السيارات، الناس الذين يذهبون إلى أعمالهم كأن العمل حق طبيعي لا معجزة. كان صديقي يمشي بثقة. لم يكن غامضًا بطريقة مُخيفة، لكنه لم يكن واضحًا. بين حين وآخر يلتفت إليّ ويقول:

ما تكترش الهدرة. غير سمع، وشوف، ومن بعد قرر.

قلتُ له:

أنا ما بقيتش باغي ندخل لشي حاجة ترجعني للحبس.

توقف، نظر إليّ بجدية، وقال:

الحبس ماشي غير تما. كاين اللي برا وهو محبوس أكثر منك.

قلتُ:

عارف.

قال:

إذن خاصك تفهم اللعبة.

اللعبة.

هذه الكلمة لم تعجبني. لأن الفقراء حين يسمعون كلمة اللعبة، غالبًا يكونون هم القِطع لا اللاعبين. قلتُ له:

شنو هاد اللعبة؟

قال:

غادي تعرف.

ثم واصل المشي.

في الطريق، بدأت ألاحظ أننا نبتعد عن الشوارع المألوفة نحو جهة أقل صخبًا، فيها مستودعات، محلات مغلقة، وبعض المقاهي التي لا يجلس فيها الناس للراحة بل للصفقات الصغيرة. رجال بوجوه لا تضحك كثيراً. دراجات نارية. عيون تراقب ولا تنظر. شعرت أنني دخلت منطقة بين القانون وخارجه، لا هي إجرام واضح

ولا حياة شريفة. تلك المنطقة الرمادية التي يعيش فيها كثير من المغاربة: البيع بلا رخصة، الخدمة بلا عقد، الوساطة، التهريب الصغير، الحراسة غير القانونية، السمسرة، كل شيء يتحرك تحت الطاولة لأن الطاولة نفسها حجزها الكبار.

قال لي صديقي ونحن نقترب من مقهى في زاوية شبه مخفية:

سمعني مزيان. الخدمة اللي غادي نهضر معاك عليها ماشي خدمة ديال الأحلام. ولكن غادي تعطيك الفلوس، وغادي تخليك توقف على رجليك. من بعد، دبر راسك. المهم دابا خاصك تهز راسك.

قلتُ:

واش قانونية؟

نظر إليّ طويلًا، ثم ضحك ضحكة قصيرة، لا سخرية فيها بقدر ما فيها مرارة.

قال:

فهاد البلاد؟ حتى القانون خاصو رشوة باش يعيش.

لم أعرف ماذا أقول.

كلمته كانت قاسية، لكنها كانت تشبه الشارع. في بلادنا، حتى الخبز النظيف يمر أحيانًا من أيدٍ قذرة. حتى العمل الشريف قد يحتاج واسطة. حتى من يريد أن يبيع النعناع في الرصيف يُطارَد، بينما من يبيع الوطن كله يُدعى رجل أعمال. الحلال والحرام عند الفقراء ليسا دائمًا خطين واضحين؛ أحيانًا هما حبلان متشابكان حول العنق. أنت تريد ألا تخطئ، لكن الجوع يدفعك، والشارع يسحبك، والناس يغلقون الأبواب، ثم يأتي من يقول لك: علاش مشيتي للطريق الخايبة؟

دخلنا المقهى.

كان في الداخل رجلان يجلسان في زاوية. أحدهما أصلع، ضخم قليلًا، يلبس قميصًا مفتوحًا عند الصدر، وعلى يده خاتم كبير. الآخر نحيف، صامت، عيناه تتحركان كمن يحسب كل شيء. أشار لنا صديقي بالجلوس. قلبي بدأ يضرب. لم أكن أعرف هل أنا أمام فرصة أم أمام بداية سقوط جديد. صديقي قال للرجل الأصلع:

ها هو الولد اللي قلت ليك عليه. خارج من الحبس، ولكن ولد الناس، ومحتاج يخدم.

كرهت جملة "خارج من الحبس"، لكنها كانت الحقيقة. الرجل الأصلع نظر إليّ من أعلى إلى أسفل، لا كإنسان، بل كمن يقيّم بضاعة أو أداة. قال:

شنو كتقدر دير؟

كدت أجيبه: أقدر أن أجوع، أن أدفن أمي في قلبي، أن أتحمل الإهانة، أن أنام في الشارع، أن أخرج من السجن وأحاول ألا أعود إليه. لكنني قلت فقط:

أي حاجة.

قال:

أي حاجة كلمة كبيرة.

قلت:

إلا الحبس. ما بغيتش نرجع ليه.

ابتسم ابتسامة صغيرة وقال:

حتى واحد ما كيبغي يرجع، ولكن كاين اللي كيعرف يخدم وكاين اللي كيتشد.

شعرت ببرودة في ظهري.

ها هي اللعبة تبدأ تظهر. ليس السؤال عندهم هل الشيء قانوني أو غير قانوني، بل هل تعرف كيف تفعل دون أن تُمسك. هذا هو منطق الشارع حين يخرِج من رحم دولة غير عادلة. القانون لا يكون قيمة، بل فخًا. والذكاء لا يكون أن تكون صالحًا، بل أن تنجو. نظرت إلى صديقي. كان وجهه هادئًا، لكنه لم يكن يطمئنني تمامًا.

الرجل الأصلع تابع:

ما غاديش ندخلوك فشي حاجة كبيرة. غير توصيل. عينك تكون محلولة، فمك مسدود، وما تسولش بزاف.

توصيل.

كلمة بريئة جدًا.

كل الكوارث تبدأ بكلمات بريئة. توصيل ماذا؟ لمن؟ أين؟ لماذا لا يسأل؟ لماذا يحتاجون إلى شخص خارج من السجن، بلا بيت، بلا مال، بلا ظهر؟ لأن الفقير حين يسقط يصبح قابلاً للاستعمال. لا أحد يستعمل الإنسان المستقر بسهولة، لأن لديه ما يخسره وناسًا يسألون عنه. أما أنا، فماذا كنت أملك؟ أم ميتة، بيت ضائع، عائلة غائبة، ماضٍ مسجون. كنت مناسبًا تمامًا للوظائف التي تحتاج إلى رجل يمكن إنكاره إذا وقع.

قلتُ:

شنو نوصل؟

الرجل النحيف تكلم لأول مرة:

قلنا ما تسولش بزاف.

صمِتّ.

في تلك اللحظة، سمعت صوت أمي في داخلي. لم يكن صوتًا حقيقيًا، بل ذاكرة .رد بالك آ ولدي .ثم سمعت صوت الجوع. ثم صوت القبر. ثم صوت السجن. ثم صوت صديقي وهو يقول : خاصك تهز راسك .كل الأصوات تكلمت دفعة واحدة. الإنسان لا يسقط لأنه لا يعرف الفرق بين الخير والشر، بل لأنه يسمع أصواتًا كثيرة في وقت واحد، وكل صوت معه حق جزئي. الخوف معه حق. الجوع معه حق. الكرامة معها حق. الحذر معه حق. الحاجة معها حق. والشيطان، حين يأتي، لا يأتي غالبًا بصورة شيطان، بل بصورة حل مُؤقت.

قلت للرجل:

نفكر.

نظر إليّ باستغراب، ثم إلى صديقي. كأن التفكير رفاهية لا تليق بي. قال:

فكر، ولكن ما تطولش. الفرص ما كتسناش بزاف.

خرجنا من المقهى.

في الشارع، سألني صديقي:

شنو بان ليك؟

قلتُ:

بان ليا الطريق كحلة.

قال:

الطريق كاملة كحلة. الفرق واش غادي تبقى واقف فيها ولا تمشي.

قلت:

واش هادي خدمة ولا مصيبة؟

قال:

هي خدمة عند اللي محتاج. ومصيبة عند اللي تيتشد.

توقفت ونظرت إليه. قلت:

وأنت؟ شنو وصلك لهادشي؟

لم يجب فورًا. أشعل سيجارة، أخذ نفسًا، ثم قال:

أنا غير تعلمت نعيش فزمن العبيد.

هذه الجملة ظلت معلقة بيننا.

زمنُ العبيدِ.

نعم. زمن لا يترك لك خيارًا نظيفًا، ثم يحاسبك على اتساخ يديك. زمن يدفعك إلى الزاوية، ثم يقول لك لماذا لم ترقص بأدب؟ زمن يقتل أمك بالفقر والمرض والانتظار، ثم يضع أمامك عملًا غامضًا ويقول لك: اختر. زمن إذا رفضت فيه، جعت. وإذا قبلت، صرت مذنبًا. وإذا سقطت، قالوا: كان من الأول خايب. وإذا نجوت، قالوا: عرف كيف يدبر راسو.

مشيتُ معه دون أن أجيب.

كنت أعرف أنني لم أقرر بعد، لكنني كنت أعرف أيضًا أن القرار بدأ يتخذني. وهذا أخطر ما في الفقر :لا تختار الطريق دائمًا، أحيانًا الطريق يختارك لأنك تقف طويلًا بلا مأوى على حافته.

٣٤

توجهنا إلى منزلٍ في المدينة القديمة.

لم تكن المدينة القديمة مدينة بالمعنى الذي يفهمه الغرباء حين يأتون بكاميراتهم، مفتونين بالأبواب الخشبية والزليج العتيق ورائحة التوابل. بالنسبة لنا، نحن الذين خرجنا من أرحام الفقر، كانت المدينة القديمة أحشاءً متداخلة، أزقة ضيقة كأنها شرايين مريض، جدران متعبة تحمل أسرار أجيال، نوافذ صغيرة تطل على لا شيء، وأبواب لا تعرف هل خلفها بيت عادي أم وكر للمهربين أم غرفة ينام فيها عشرة عمال أم زاوية صوفية أم جحيم صغير يختبئ خلف كلمة "اللّه". المدينة القديمة تعرف كيف تخفي كل شيء. تخفي الفقر خلف البخور، والخوف خلف القرآن، والجريمة خلف الدعاء، والضعف خلف الجلباب، والخراب خلف باب مطلي بلون جميل. ولهذا كان السير في أزقتها يشبه الدخول إلى ذاكرة المغرب، لا إلى حيّ من أحيائه؛ ذاكرة مليئة بالبركة والوسخ، بالقداسة والنفاق، بالحنين والعفن.

كان صديقي يمشي أمامي بثقة، أو كان يتظاهر بها. لم يعد يشرح شيئًا. كلما سألته بعيني، كان يرد بصمت يقول :صبر، غادي

تفهم .أما أنا، فكنت أسمع خطواتي تتردد في الأزقة كأنها ليست خطواتي، بل خطوات رجل آخر يدفعني نحو مصير لم أوافق عليه بعد. كل منعطف كان يزيد قلقي. لماذا لا نذهب إلى ورشة؟ إلى مخزن؟ إلى مقهى؟ إلى صاحب عمل واضح الوجه والنية؟ لماذا المدينة القديمة؟ لماذا هذا الصمت؟ لماذا كل شيء، منذ خرجت من السجن، يبدو كأنه يقودني لا إلى العمل، بل إلى فخّ مُهيأ بعناية الفقر؟

وصلنا إلى باب منخفض قليلًا، باب خشبي قديم عليه مسامير سوداء، كأنه اقتُطع من زمنٍ لا يؤمن بالشفافية. طرق صديقي طرقات خفيفة، لا تشبه طرقات الزوار، بل إشارات من يعرف أن الأبواب أحيانًا لها آذان. فُتح الباب ببطء. لم يظهر الوجه أولًا، بل ظهرت عين، ثم نصف وجه، ثم دخلنا. وما إن تجاوزت العتبة حتى جاءت على أنفي رائحة البخور والمسك، رائحة كثيفة، حلوة وخانقة في الوقت نفسه. لم تكن رائحة بيت طبيعي. كانت رائحة مكان يريد أن يصنع لنفسه هالة. رائحة تحاول أن تقول لمن يدخل: هنا طهارة، هنا سر، هنا شيء أعلى من الحياة اليومية. لكنني، وأنا الخارج من السجن، كنت قد تعلمت أن الرائحة لا تثبت شيئًا. كم من زنزانة

رُشت بالعطر قبل زيارة لجنة؟ وكم من يد متسخة توضأت قبل أن تضرب؟

دخلنا إلى صالة متوسطة، مفروشة بحصر وأغطية بسيطة، لكنها مرتبة بعناية غريبة. على الجدران بعض الآيات، وبعض العبارات الدينية، وساعة قديمة، ومصباح أصفر يجعل الوجوه تبدو أكثر حدة. كان هناك رجال يجلسون في الصالة، أغلبهم بلحى طويلة أو متوسطة، وبعضهم بلباس يذكّر بتلك الصور التي رأيتها في الوثائقيات عن الجماعات المتطرفة، لا لأنه لباس بعينه يثبت شيئًا، فاللباس بريء أحيانًا من صاحبه، بل لأن الهيئة كلها كانت مُصممة لتقول: نحن لسنا من هذا العالم الفاسد. جلابيب قصيرة أو داكنة، سراويل فوق الكعب، عيون يقظة أكثر مما ينبغي، صمت منظم، وأجساد جالسة كأنها في انتظار أمر لا نقاش فيه.

قرأت السلام.

قلتُ: السلام عليكم.

ردوا بصوت واحد تقريبًا، لكن الرد لم يحمل دفء السلام، بل برودة الاختبار. كأنهم لم يردوا عليّ بقدر ما سجّلوا أنني بدأت بالكلمة الصحيحة. جلستُ إلى جانب صديقي، وكان قلبي يتحرك

في صدري مثل طائر علق في قفص. حاولت أن أبدو طبيعيًا. السجن علمني أن الخوف إذا ظهر على الوجه صار دعوة للآخرين كي يستعملوه ضدك. لذلك وضعت وجهي في حالة وسطى: لا فضول زائد، لا خوف واضح، لا ثقة مستفزة. مجرد رجل جاء يبحث عن عمل، فوجد نفسه وسط مجلس لا يعرف هل هو مجلس دين أم محكمة سرية.

بدأ الحديث بخطاب ديني.

لم يبدأوا بالسؤال عن حاجتي، ولا عن جوعي، ولا عن أمي التي ماتت، ولا عن السجن، ولا عن العمل الذي وعدني به صديقي. بدأوا باللّه والفساد والزمان الرديء والناس الذين ابتعدوا عن الدين. وكأن الإنسان، في نظرهم، لا يكون جائعًا أولًا، بل ضالًا. لا يكون مطرودًا من البيت، بل محتاجًا للهداية. لا يكون مكسورًا، بل مادة خامًا لإعادة التشكيل. كان أحدهم يتكلم عن الدنيا الفانية، وآخر يذكر أحاديث وآيات، وثالث يراقبني أكثر مما يُشارك. وكان صديقي جالسًا قربى، صامتًا، ينظر إلى الأرض أحيانًا، وإليّ أحيانًا أخرى، كأنه هو أيضًا يعرف أنني بدأت أفهم شيئًا لم يكن يريد أن يقوله في المقهى والشارع.

سألني أحدهم فجأة:

هل أنت على وضوء؟

لم يكن السؤال دينيًا فقط. كان اختبارًا. في هذه المجالس، السؤال الصغير ليس صغيراً. هل أنت على وضوء؟ يعني: هل أنت منا؟ هل تعرف الأدب؟ هل تدخل إلى فضائنا بالطريقة الصحيحة؟ هل جسدك صالح للمسّ المقدس الذي سنضعه في يدك؟ في تلك اللحظة، كان بإمكاني أن أقول الحقيقة: لا. كان بإمكاني أن أقول إنني خرجت من السجن، وإنني لم أجد مكانًا أغتسل فيه كما ينبغي، وإنني ذهبتُ للحمام لكن بعد ذلك استحلمتُ وإنني على جنابة، لا لأنني كنت متمردًا على الطهارة، بل لأن الفقر نفسه نجاسة مفروضة، لأن من لا يملك بيتًا لا يملك حتى حقه في أن يكون نقيًا. لكنني قلت دون تردد:

نعم.

كذبتُ.

كذبة صغيرة في مجلس يزعم أنه لا يحتمل الكذب. نعم، قلت إنني على وضوء، والحقيقة أنني كنت أحمل على جسدي ستة أشهر من السجن، وعرق الشوارع، وحمامًا لم يغسل كل شيء، وجنابة

قديمة ليست جنابة الجسد فقط، بل جنابة الحياة كلها. كنت نجسًا بمعنى أعمق مما يعرفون: نجسًا بالفقر، بالهزيمة، بالخذلان، بالذنب، وبجوع جعلني أجلس بينهم وأنا أعرف أنني أكذب، لكنني أكذب لأفهم إلى أين يريدون أخذي.

أعطاني أحدهم القرآن.

كان المصحف في غلاف أخضر داكن، عليه أثر استعمال كثير. حين وضعه في يدي، شعرت بثقل غريب. ليس ثقل الورق، بل ثقل المسرحية. نظرت إلى صديقي. أردت أن أسأله بعيني: ما هذا؟ لماذا جئت بي إلى هنا؟ لماذا لم تقل إن العمل يبدأ بقسم وبخور ومصحف ورجال يشبهون مذيعي الموت في الوثائقيات؟ لكنه أخفض عينيه. تلك الحركة الصغيرة كانت أبلغ من أي اعتراف. خفض عينيه لأنه لم يعد قادرًا على مواجهة السؤال. في تلك اللحظة، فهمت أن صديقي لم يكن صديقًا بالمعنى البريء، بل وسيطًا. وربما كان، هو نفسه، ضحية قديمة صارت تجلب ضحايا جددًا كي لا تبقى وحدها.

قال لي رجل ذو لحية بيضاء، كثيفة ومهذبة، ووجه جامد:

أدِّ القسم بأنك لن تخون العهد.

نظرت إليه.

أي عهد؟

خرج السؤال مني طبيعيًا. لم أكن قد فهمت اللعبة كاملة بعد، أو ربما كنت أفهم وأرفض أن أصدق. قال، دون أن يشرح:

افعل وستعرف.

هنا عرفت أنني في موضع لا تمُنح فيه المعرفة قبل الطاعة، بل بعدها. وهذا هو جوهر كل عبودية: أطع أولًا، ثم سنخبرك لماذا. أقسم أولًا، ثم ستعرف العهد. اخضع أولًا، ثم سنسمي الخضوع إيمانًا. كان بإمكاني أن أقوم وأخرج. نظريًا، الباب خلفي. لكن الفقر يجعل الأبواب النظرية ثقيلة. كنت لا أملك مالًا، ولا عملًا، ولا بيتًا، ولا عائلة، ولا أمًا أعود إليها. وكان هؤلاء، رغم رائحتهم المخيفة، يمثلون شيئًا لا يملكه الشارع: جماعة. والجماعة، للإنسان المكسور، مخدر قوي. أن تكون وسط أناس يقولون لك إنك مهم، إن لك دورًا، إن فقرك ليس عبثًا بل مقدمة لمهمة، هذا كافٍ ليخدع كثيرين. وأنا لم أكن أقوى من كثيرين. كنت فقط أكثر ارتباكًا.

أديتُ القسم.

لساني نطق بما طلبوا، لكن قلبي كان في مكان آخر. لم أكن مؤمنًا حتى بكتابهم كما يؤمنون هم به. كنت أعرف القرآن كجزء من طفولتي، من صوت أمي، من الجنائز، من رمضان، من الخوف والسكينة في الوقت نفسه. أما عندهم، فقد كان القرآن شيئًا آخر: ليس نداءً للرحمة، بل بطاقة انتماء وسيفًا معنويًا يقطع العالم إلى نحن وهُم. أديت القسم وأنا أشعر أنني أوقع ورقة لا أقرأها. وهذا، في بلادنا، يحدث كثيراً. الفقير يوقع بعينه قبل يده، لأنه يخاف أن تضيع الفرصة إن سأل كثيراً.

ثم رأيت رجلًا يرتدي جلبابًا أسود. كان على الجلباب مكتوبًا بخط أبيض بارز :لا إله إلا اللّه محمد رسول الله، ومعها رمز خاتم النبي. لم أحتج إلى ذكاء كبير. لم أحتج إلى تحليل سياسي ولا ثقافي. عرفت دون نقاش أنني أصبحت، أو أنهم أرادوا أن أصبح، ضمن جماعة إرهابية، توظيفها على الصدر بهذه الطريقة، في ذلك المكان المغلق، وسط تلك العيون، لم يكن تدينًا عاديًا. كان إعلان حرب. كان تحويلاً للكلمة التي كانت أمي ترددها وهي تخاف عليّ إلى راية انضباط سري. وهنا شعرت باختناق. خرجت من سجن

الدولة لأدخل سجنًا آخر، سجنًا لا جدران له في البداية، لكنه أكثر قدرة على امتلاك الروح.

نطق كبيرهم، أو كما كانوا يسمونه "الأمير."

كلمة أمير وحدها كانت كافية لتجعلني أرتعش داخليًا. أمير على ماذا؟ على هذه الصالة الضيقة؟ على رجال ضائعين؟ على فقراء ومطرودين وخارجين من السجون؟ لكن الإنسان حين لا يملك شيئًا يحب أن يخترع ألقابًا. في السجن هناك "مول الجناح"، في الشارع "الكبير"، في السياسة "الزعيم"، في الدين "الأمير". الأسماء تعوض الفراغ. جلس الأمير في صدر المكان، وكان الجميع ينظرون إليه بنوع من الطاعة التي تثير الاشمئزاز والخوف. قال بصوت هادئ لكنه مسنن:

اسمع يا بني، نحن في حرب مع أعداء اللّه.

أعداء اللّه؟

الكلمة ضربت رأسي. من هؤلاء؟ هل أنا في حلم؟ هل خرجت من زنزانة حقيقية لأدخل وثائقيًا رديئًا عن التطرف؟ كنت أنظر حولي وأحاول أن أجد شيئًا يسخر من المشهد، شيئًا يقول إن هذا تمثيل أو تجربة أو مزحة ثقيلة، لكن الوجوه كانت جادة. جادة جدًا. وهذا ما

يخيف في التطرف: ليس جنونه، بل جديته. المجنون الذي يضحك على جنونه أهون من رجل يقتل وهو يشعر أنه ينفذ واجبًا مقدسًا. كان كل شيء يشبه تلك الوثائقيات التي كنت أشاهدها عن الجماعات الإرهابية: المجلس المغلق، البخور، المصحف، القسم، الأمير، العبارات الكبرى، وأخيراً العدو. لا توجد جماعة متطرفة دون عدو. العدو هو الخيط الذي يجمع الخائفين. من دونه، سيجلسون أمام أنفسهم فيرون بؤسهم الحقيقي.

أضاف الأمير:

اسمع جيدًا. يجب أن نحارب أعداء اللّه.

عمّ صمت رهيب.

لم يكن الصمت فراغًا، بل استعدادًا. كلهم يعرفون أن ما سيأتي ليس شرحًا بل تأسيسًا. بدأ يتلو أمام أنظار الجميع آياتٍ بصوتٍ متحكم، يرفع موضعًا، ويخفض آخر، ويترك بعض الكلمات معلقة في الهواء كأنها سكاكين. تلا قوله:

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ.

ثم أضاف آية أخرى، بصوتٍ صار أكثر حرارة:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ...

كان يقرأ، والرجال ينظرون إليّ كأنهم يريدون أن يروا أثر الآية على وجهي. لكن ما حدث داخلي لم يكن إيمانًا ولا خشوعًا. كان خوفًا من الطريقة التي تُنتزع بها النصوص من سياقاتها وتُغرس في لحم الفقراء كأوامر مباشرة. الآية عند أمي كانت تُقرأ في الراديو فتجعل البيت هادئًا. هنا كانت تُقرأ لتجعل العالم عدوًا. نفس اللغة، لكن يدًا أخرى تمسك بها. وهنا فهمت أن النص ليس وحده ما يصنع الخطر، بل اليد التي تختاره، والعين التي تقرأه، والغرض الذي ينتظره خلف القراءة. القرآن في فم أمي دعاء. في فم هذا الرجل إعلان تعبئة. وبين الدعاء والتعبئة، يسقط الإنسان.

قلت، وأنا أحاول أن أحافظ على صوت ثابت:

من هم أعداء اللّه؟

نظر إليّ الأمير كأن السؤال بديهي إلى درجة أنه يدل على جهلي. قال:

الدولة الكافرة. التي تتركُ بيع الخمور، وتنهب وتسرق أموال الشعب، وتعتدي عليه بالقمع. الحانات أكثر من المساجد، والفساد يعُم في الأرض. ونحن جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كان كلامه، في بدايته، يستعمل أوجاعًا حقيقية. وهذا أخطر ما في التطرف: لا يبدأ دائمًا من كذب خالص، بل يبدأ من حقيقة مجروحة ثم يفسدها. نعم، الدولة تقمع. نعم، هناك نهب. نعم، هناك فساد. نعم، الخمور تُباع، والفقر يُباع، والأجساد تُباع، والأحلام تُباع. نعم، الناس مسحوقون، والمقدسات تُستعمل لحماية اللصوص، والشرطة تضرب الفقير أكثر مما تضرب الفساد الكبير. لكن من هذه الحقائق الحقيقية، كان يريد أن يصنع طريقًا إلى خراب أكبر. كان يأخذ غضبنا العادل ويضعه في يد غير عادلة. يسرق ألمنا كما تسرق الدولة مالنا. يقول لك: أنت مقهُور؟ تعال، سنعطي قهرك اسمًا مقدسًا. أنت مذلول؟ تعال، سنجعلك جنديًا للّه. أنت بلا عمل؟ تعال، سنمنحك مهمة. أنت بلا أم، بلا بيت، بلا مستقبل؟ تعال، سنعطيك إخوة، وأميرًا، وعدوًا، وموتًا له معنى.

أدركتُ حينها لماذا كنت هناك.

لم يكونوا يبحثون عن مؤمنين مستقرين.

كانوا يبحثون عن مكسورين.

عن خارجين من السجون، عن فقراء بلا سقف، عن شباب فقدوا الأمهات أو الآباء أو الأمل، عن رجال لا يملكون شيئًا ليخسروه. التطرف لا يطرق غالبًا باب الإنسان المُكتفي، بل باب من نام طويلًا على حافة اليأس. هؤلاء لا يجندون العقيدة فقط، بل يجندون الجوع، والمهانة، والخذلان، والعار، والحاجة إلى الانتماء. كنت مادة مثالية: سجين سابق، أم ميتة، بيت ضائع، عمل مرفوض، غضب على الدولة، كراهية للظلم، وجرح مفتوح يبحث عن اسم. كانوا يريدون أن يقولوا لي: جُرحك ليس فوضى، جرحك جهاد. غضبك ليس ضياعًا، غضبك عقيدة. موت أمك ليس مأساة اجتماعية، بل دليل على كفر النظام. وهكذا يتحول الحزن إلى وقود.

لكن شيئًا داخلي كان يقاوم.

ربما صوت أمي. ربما ما رأيته في السجن. ربما لأنني كنت قد عرفت كيف تستعمل المؤسسات الإنسان حين تسلبه اسمه. الدولة استعملتني كسجين. هؤلاء يريدون استعمالي كمُقاتل. الفرق في اللغة فقط. هناك رقم، وهنا أخ. هناك حارس، وهنا أمير. هناك قانون، وهنا عهد. هناك عقوبة، وهنا جهاد. لكن في الحالتين، هناك

من يريد جسدي وقراري وروحي. وأنا، الذي ظننت أنني خرجت من زمن العبيد، وجدت نفسي أمام سيد جديد يلبس الجلباب الأسود.

قلت بحذر:

ولكن واش كلشي أعداء؟ الناس كاملين؟ اللي خدام فالدولة؟ اللي كيشرب؟ اللي ما كايصليش؟ واش كاملين خاصهم الذبح؟

نظر بعض الرجال إليّ بنفور. السؤال في مثل هذه الأماكن ليس بحثًا، بل شبهة. الأمير ابتسم ابتسامة صغيرة وقال:

أنت ما زلت جديدًا. ستفهم. لا نحكم على الناس بالهوى، نحكم بشرع اللّه.

قلتُ:

ومن يفهم شرع اللّه هنا؟

ساد صمت أثقل.

صديقي نظر إليّ بسرعة، كأنه يحذرني. الأمير لم يغضب ظاهريًا، لكن عينيه تغيرتا. قال:

العلماء الربانيون، وأهل البصيرة، ومن لم يبيعوا دينهم للطاغوت.

قلت:

وكل من خالفكم باع دينه؟

قال رجل آخر بحدة:

رد بالك مع لسانك. أنت جالس بين إخوتك.

إخوتي.

الكلمة نفسها التي تمنح الدفء تُستعمل أحيانًا كقيد. إذا كانوا إخوتك، فلا تسأل كثيراً. إذا كانوا إخوتك، فثق. إذا كانوا إخوتك، فاخفض صوتك. العائلة فشلت في حمايتي، والآن هؤلاء يعرضون عائلة بديلة، لكنها تبدأ بتأديب لساني. قلت في داخلي: لا، ليسوا إخوتي. الأخ لا يطلب منك أن تقسم قبل أن تعرف. الأخ لا يخفض عينيه حين يوقعك في مجلس غامض. الأخ لا يستعمل جوعك كي يجرّك إلى حربه.

لكنني لم أقل ذلك بصوت عالٍ.

كنت محاصرًا داخل بيت لا أعرف خارجه جيدًا، مع رجال لا أعرف حدودهم. العقل هنا يجب أن يلبس قناع الحذر. قلت فقط:

أنا غير بغيت نفهم.

قال الأمير:

والفهم يأتي بالطاعة والصُحبة الصالِحة. لا تكن مستعجلاً. أنت خرجت من السجن، وذاقت نفسك ظلم الطاغوت. اللّه ساقك إلينا ليرفعك من حياة الذل إلى حياة العزة والنُور.

حياة العزة.

يا للعبارة وهي تقع على أذن رجل لم يجد ثمن قهوة بالأمس. كان يعرف أين يضرب. العزة، الكرامة، الأخوة، الجهاد، الطاغوت، أعداء اللّه. كلمات ضخمة، لكنها في الحقيقة كانت تُلبس فقري بدلة مقدسة. بدل أن يقول لي: سنستغلك لأنك مكسور، قال: اللّه اختارك. بدل أن يقول: سنجعلك أداة، قال: سنرفعك. بدل أن يقول: ستطيع الأمير، قال: ستطيع اللّه. كل سلطة ذكية تسرق لغة الخلاص.

نظرت إلى صديقي مرة أخرى.

كان صامتًا. لم يعد الصديق الذي عانقني في الشارع وقال توحشناك. صار واحدًا منهم، أو نصف واحد منهم، أو رجلاً عالقًا كما كنت سأُعلق لو بقيت. رأيت في عينيه خوفًا صغيراً. ربما كان يريد أن يساعدني فعلاً، ثم وجد أن المساعدة الوحيدة التي يعرفها تمر عبر هذا الباب. ربما كان يؤمن ببعض ما يقولون. ربما كان

يتظاهر بالإيمان كي يعيش. في زمن العبيد، لا أحد يكون حرًا بالكامل حتى في ضلاله.

قال الأمير:

اليوم ستبقى معنا قليلًا. تسمع. تأكل معنا. ثم نرى أين نضعك.

أين يضعني.

لم يقل أين تعمل.

قال أين نضعك.

كنت قد صرت شيئًا يُوضع. في السجن كنت أُوضع في زنزانة. في البيت الذي فقدته وُضعت أمي في قبر. وفي هذا المكان يريدون أن يضعوني داخل خطة لا أعرفها. شعرت أن حياتي كلها سلسلة أيدٍ تضعني حيث تريد. الدولة، الفقر، السجن، الموت، السمسار، العائلة الغائبة، الصديق، الأمير. كلهم يضعونني. وأنا؟ أين أضع نفسي؟

بدأوا يتحدثون عن الفساد في البلاد، عن الخمور، عن النِساء القحبوات، عن القمع، عن الحكم بغير ما أنزل اللّه، عن ضرورة "التغيير"، لكنهم كانوا يتجنبون التفصيل أمامي. كنت جديدًا، ولا يستحق الجديد أن يعرف كل شيء. ومع ذلك، كانت العبارات

كافية لتدل على الطريق. لم يكونوا جماعة وعظ فقط. في كلامهم رائحة عمل قادم. رائحة سرية. رائحة دم مُحتمل. كنت أسمع وأتظاهر بالهدوء، لكن عقلي كان يركض.

إذا خرجت الآن، هل سيسمحون لي؟

إذا قلت إنني لا أريد، هل سيعتبرونني خائنًا للعهد الذي أقسمته قبل أن أفهمه؟

إذا بقيت، هل أستطيع الهروب لاحقًا؟

إذا أخبرتُ الشرطة، هل يصدقونني أم يعيدونني للسجن بتهمة الانتماء؟

وهل أريد أصلًا أن أذهب إلى شرطة الدولة التي كانت سببًا في دخولي السجن، وفي موت أمي بعيدًا عني، لأخبرها أن هناك من يريد محاربتها باسم اللّه؟

كان كل طريق ملغمًا.

وهذا هو الجحيم الحقيقي: ليس أن تكون بين الخير والشر واضحين، بل بين شرور متعددة، كل واحد منها يلبس ثوب نجاة.

أُحضِر الشاي.

كُؤوس صغيرة، رغوة، نعناع، وسكر كثير. المفارقة قتلتني. رجال يتحدثون عن الحرب وأعداء اللّه ويشربون الشاي كما يشربه المغاربة في الأعراس والعزاء. كم تستطيع الحياة اليومية أن تتعايش مع أقصى الأفكار. قد يخطط الإنسان للعنف وهو يغمس الخبز في زيت الزيتون. قد يتكلم عن الجهاد ثم يسأل هل الشاي سخُون. الشر لا يأتي دائمًا في هيئة عاصفة؛ أحيانًا يأتي جالسًا على حصِير، تفوح منه رائحة المسك، ويقدم لك كأس شاي بابتسامة هادئة.

أخذت الكأس.

كانت يدي ترتجف قليلاً. أخفيت ذلك بأن قربتها من فمي بسرعة. الشاي حلو جدًا. الحلاوة في فمي والمرارة في صدري. تذكرت أمي. كانت تحب أن يكون الشاي مضبوطًا، لا حلوًا كثيراً ولا خفيفًا. قلت في داخلي: لو رأتني الآن، ماذا ستقول؟ هل ستفرح لأنني بين رجال يذكرون اللّه؟ أم ستشم الخطر كما تشم الأمهات المرض قبل الطبيب؟ ربما كانت ستقُول :بعد منهم آ ولدي، اللي كيهضر بزاف على اللّه وهو قلبو قاصح، خاف منو.

انتهى المجلس الأول، لكنني لم أنتهِ.

خرجت من ذلك البيت وأنا أعرف أنني دخلت مرحلة جديدة من حياتي. لم أعد مجرد شاب يبحث عن عمل. صرت شاهدًا على فخ. وصرت داخل الفخ قليلاً. العهد، القسم، الوجوه، الصديق، الأمير، كل ذلك صار حول عنقي كخيط رفيع قد يتحول إلى حبل.

حين خرجنا إلى زقاق المدينة القديمة، كان الهواء الخارجي باردًا قليلاً، لكنه بدا لي أنقى من بخورهم. تنفست بعمق.

سألني صديقي:

شنو رأيك؟

نظرت إليه طويلاً. قلت:

أنت فين دخلتيني؟ راني فهمت كُولشي... بغيتوني نهرب السلاح والمتفجرات... وفي اللخر نتشد أنا ونمشي ضحية...

قال:

دخلتك لطريق الرجال.

قلت:

لا. راك دخلتيني القلاوي للجحيم.

سكت.

قلتُ:

واش نتا مؤمن بهادشي؟

لم يجب بسرعة. ثم قال:

أنا مؤمن أن هاد البلاد ما كتعطيك حتى حل.

قلت:

ومن بعد؟ راه هاكا غي غنزيدو نقاودوها كثر ما هي مقودة علينا.

قال بحدة:

ما فهمتي والو.

قلت:

يمكن. ولكن اللي فهمت هو أنهم ما بغاوش يخدموني. بغاو يستعملوني.

قال:

كلشي كيستعملك. الدولة، المخزن، الباطرونا، الشارع. على الأقل هادو كيعطيوك معنى.

قلت:

المعنى اللي كيبدا بقسم ما فاهموش، كيقدر يسالي بقبر ما تختاروش.

نظر إليّ بغضب وخوف في آن واحد. قال:

رد بالك من لسانك. هاد الناس ما كيلعبوش.

قلت:

وأنا طلعلي فكري كولشي من اللخر، الناس ما كيلعبوش. الدولة ما كتلعَبش، السجن ما كيلعبش، الموت ما كيلعبش، ودابا حتى هما ما كيلعبوش. فين نمشي باش نلقى شي واحد كيعرف غير يعيش بلا ما يحكم عليّا؟

لم يُجب.

مَشينا في صمت.

كنت أعرف أنني، في تلك اللحظة، لم أعد أبحث عن عمل فقط. كنت أبحث عن مخرج من شبكة كاملة: دولة تقمع، مجتمع يلفظ، فقر يدفع، جماعة تستغل، وصديق يرى في الهاوية سلمًا. كان عليّ أن أختار، لكن الاختيار نفسه كان مصابًا. الحرية، حين تُعرض على رجل جائع ومحاصر، تكون أحيانًا كلمة ساخرة. ومع ذلك، كان في داخلي شيء صغير يقول: لا. لا تكن عبدًا مرة أخرى. لا للمخزن، ولا للأمير، ولا للجوع، ولا لغضبك. لا تجعل موت

أمك وقودًا لحرب لا تفهمها. لا تسمح لهُم أن يسرقوا حزنك كما سرقوا وطنك.

لكنني لم أكن بطلًا.

كنت جائعًا، مكسورًا، ووحيدًا.

والأبطال في الروايات يخرجون من الفخ لأن الكاتب يُحبهم. أما في الحياة، فالإنسان يخرج من فخ ليسقط في آخر، ثم يسمي ذلك طريقًا.

في تلك الليلة، لم أنم.

ظلّت رائحة البخور في أنفي، وصوت الأمير في أذني، ويد أمي في ذاكرتي، وقبرها في صدري. كنت أعرف أن الغد لن يكون عاديًا. وأن "زمن العبيد" لم يبدأ في الوطن، ولا في السجن كما ظننت، بل بدأ حين صار لكل جهةٍ سيدٌ يريد أن يشتري جزءًا مني: الدولة تريد جسدي مطيعًا، الفقر يريد كرامتي، الجماعة تريد غضبي، والشارع يريد صمتي.

أما أنا، فلم أكن أملك إلا سؤالًا واحدًا يتردد في رأسي:

هل يستطيع العبد أن يرفض كل الأسياد، وهو لا يملك حتى ثمن خبزة؟

اِلتقينا في اليوم الموالي. نفس المكان، نفس الوجوه، ونفس المأساة.

قلت لهم هذه المرة وبصراحة، وقد شعرت أن الهواء في الغرفة صار أثقل من البخور، وأن كل رجل جالس أمامي لا ينظر إليّ بعينيه فقط، بل ينظر إليّ بكل ما حُقن في رأسه من غضب وحفظ وتأويل:

نعم، أنا معارض.

قلتُها بوضوح، لا لأرضيهم، ولا لأجعل نفسي واحدًا منهم، بل لأقطع عليهم طريقًا كانوا يحاولون أن يجرّوني إليه. كانوا يريدون أن يجعلوا المعارضة سُلّمًا إلى القتل، وأن يجعلوا غضبي من الدولة جواز سفر إلى دم الناس. قلتها وأنا أعرف أن الكلمة في هذا البلد جريمة، وأن مجرد قولك إنك معارض قد يجعلك في عين السلطة مشروع ملف، وفي عين هؤلاء مشروع مُجاهد. لكنني كنت أريد أن أشرح لهم أن المعارضة ليست سكينًا دائمًا، وأن كره الظلم لا يعني عشق الخراب، وأن من يرفض العبودية لا ينبغي أن يصير عبدًا لشيخ أو أمير أو آية مقتطعة من سياقها.

قلت:

أنا معارض للنظام الحاكم الديكتاتوري الذي يقمع، وينهب أموال الضعفاء والفقراء، ويدفع الناس إلى الهجرة والسرقة والسجن والجنون. أنا ضد العبودية، ضد تقبيل الأيادي، ضد الركوع للبشر، ضد تحويل المواطن إلى كلب ينتظر صدقة من سيده. أنا ضد أن يعيش إنسان في قصر، وآخر ينام في الشارع، ثم يقال لنا إن هذا قدر اللّه. أنا ضد أن تُسرق المدرسة، ويُباع المستشفى، وتتحول العدالة إلى ميزان مائل لا يستقيم إلا حين يقف عليه الفقير وحده.

كنت أتكلم، وكل جملة تخرج مني كأنها خرجت من شهور السجن، من قبر أمي، من البيت الذي لم يعد لنا، من الجوع، من تلك اللحظة التي وقفت فيها أمام بابنا فخرج لي رجل غريب يحمل خبر موتها. لم تكن المعارضة عندي فكرة حزبية، ولا شعارًا يُرفع في مسيرة، بل كانت وجعًا شخصيًا، وجعًا له وجه أمي، وله رائحة زنزانة، وله صوت صاحب عمل يقول: خلي رقمك ونعيطو ليك إن شاء اللّه وهو يعرف أنه لن يفعل.

ثم أضفت، وأنا أنظر إلى الأمير وإلى الرجال من حوله:

لكن هل ترون أن بهذه الطريقة سنغير الوضع؟

ساد صمت خفيف. كانوا يتوقعون مني غضبًا، وربما كانوا مستعدين له. أما السؤال، فكان أكثر إزعاجًا. المتطرف لا يخاف الغضب، بل يستثمره. يخاف التفكير، لأن التفكير يجعل الغضب يتردد قبل أن يتحول إلى نار.

قلت:

نحن نحتاج إلى تعليم في مستوى جيد، لا إلى أطفال يحفظون الخوف قبل الحروف. نحتاج إلى مدارس لا تقتل في الطفل فضوله، ولا تجعل الفقير يحس أن مقعده مجرد انتظار طويل للبطالة. نحتاج إلى مستشفيات لعلاج المرضى، ومراكز صحية ترمم أجساد الناس قبل أن تتحول الأمراض إلى أحكام إعدام بطيئة. نحتاج إلى النزاهة والشفافية والموضوعية والديمقراطية. نحتاج إلى قضاء لا يعرف الهاتف من فوق، وإلى إدارة لا تبيع الكرامة في الطوابير، وإلى شرطة تحمي المواطن لا تربي فيه الخوف، وإلى مسؤول يخاف من الشعب لا شعب يخاف من المسؤول.

كنت أتكلم بحرارة لا تشبه حرارة خطبهم. حرارتي لم تكن رغبة في موت أحد، بل رغبة في ألا يموت الناس بهذه الطريقة البطيئة.

قلت:

هل بالتفجير والقتل والذبح سنصل إلى نتيجة؟ هل إذا قتلنا هذا لأنه يعمل في الدولة، وذاك لأنه يختلف في الدين، وآخر لأنه يبيع الخمر، وامرأة لأنها لا تلبس كما تريدون، سنصبح أحرارًا؟ هل الحرية تُبنى فوق جماجم الناس؟ هل الدولة الظالمة تسقط حين نصير نحن أكثر ظلمًا منها؟ ألن نعطيها مبررًا أكبر لتسحق الجميع؟ ألن تقول للناس: انظروا، هؤلاء هم المعارضون، ذباحون ومجانين؟ ألن يصبح الفقير، الذي ندعي أننا نحمل همه، أول من يدفع الثمن؟

قاطعني أحدهم، كان وجهه حادًا وعيناه مشدودتين كأنهما لا تعرفان النوم الهادئ:

كلام الأمير لا يُعلى عليه.

هذه الجملة وحدها كانت كافية لتفضح كل شيء. كلام الأمير لا يُعلى عليه. إذن نحن لم نخرج من عبودية النظام إلى حرية الدين، بل من سيد إلى سيد. هناك الملك أو الحاكم أو المسؤول الذي لا يُسأل، وهنا الأمير الذي لا يُعلى على كلامه. هناك مقدسات الدولة، وهنا مقدسات الجماعة. هناك من يقول لك: لا تناقش الأمن القومي. وهنا من يقول لك: لا تناقش الشرع. وفي الحالتين، المطلوب واحد: اخفض رأسك.

تابع الرجل:

هؤلاء أعداء الله في الأرض، وقتالهم أصبح مسألة مشروطة وبدون تفكير. قال تعالى :وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ.

قرأ الآية وكأنه يضع حجرًا فوق صدري. وحين أنهى، رأيت بعض الوجوه تهتز برضا، كأن الاقتباس أغلق النقاش. يا لسحر النص حين يُستعمل كقفل. لا كنافذة، ولا كسؤال، بل كقفل. آية تُلقى في المجلس، فتسكت العقول، لا لأنها فهمت، بل لأنها تخاف أن تبدو كافرة إن سألت. في هذه اللحظة فهمت أن الاستبداد الديني أخطر من الاستبداد السياسي في شيء واحد: السياسي يقول لك "اصمت لأنني قوي"، أما الديني فيقول لك "اصمت لأن اللّه قال". الأول يسرق صوتك باسم السلطة، والثاني يسرقه باسم السماء.

أجبت، محاولًا ألا أترك صوتي يرتجف:

ألا تقولون إن الإسلام دين الرحمة والسلم والتآخي؟ ألا تقولون إن النبي محمد رحمة للعالمين؟ ألا تقولون إن اللّه غفور رحيم؟ فلماذا كلما دخلت إلى مجلس من مجالسكم أسمع القتل قبل الرحمة، والعدو قبل الإنسان، والسيف قبل الحكمة؟ لماذا لا تحفظون من الدين إلا ما يصلح لبناء عدو؟ لماذا لا تذكرون الجائع، واليتيم، والمريض، والمظلوم، إلا حين تحتاجون إليهم كوقود في خطابكم؟

التفتُّ إلى الرجل الذي قرأ الآية، ثم إلى الأمير:

هل بالقتل سنغير وطنًا بأكمله؟ انظروا إلى سوريا، العراق، ليبيا، الصومال. ماذا تغير؟ دول حُطمت، ومدن دُمرت، وأطفال صاروا بلا مدارس، وأمهات بلا قبور واضحة لأبنائهن، وناس هربوا في البحر والبر، وجماعات رفعت رايات كثيرة باسم الدين والقتال والجهاد، وفي النهاية من ربح؟ هل ربح اللّه؟ هل ربح الفقراء؟ هل ربح الدين؟ أم ربح تجار السلاح، والمخابرات، واللصوص، وأمراء الحرب، والكهنة الجدد الذين وجدوا في الخراب عرشًا؟

لم يعجبهم كلامي. رأيت الانقباض في الوجوه. لكنني كنت قد عبرت نقطة الخوف الأولى. قلت:

أنا معارض، نعم. لكنني لست قاتلاً. لست مستعدًا أن أقتل إنسانًا لأنه مسيحي، أو يهودي، أو ملحد، أو لأنه يشرب، أو لأنه يعمل في إدارة، أو لأنه لا يشبهني. الكل حر في ذاته. إذا كان هذا الوطن مريضًا، فلا نعالجه بقطع رأسه. الدولة لن تتغير بهذه الطريقة. ستعمُ حرب أهلية، وستفتحون بابًا لن يغلقه أحد. ستبدأون بعدو واحد، ثم ستختلفون فيما بينكم، ثم سيقتل بعضكم بعضًا لأن هذا أخف تشددًا، وذاك أكثر تأويلًا، وهذا خان العهد، وذاك لم يفهم كلام الأمير. ألم يحدث هذا في كل مكان دخلته هذه النار؟

كنت أتكلم وداخلي يرتجف لا من ضعف الحجة، بل من خطورة المكان. لم أكن في جامعة، ولا في ندوة، ولا أمام أصدقاء يناقشون السياسة. كنت وسط رجال يرون النقاش ترفًا، والطاعة دينًا، والشك مرضًا. ومع ذلك كنت أشعر، لأول مرة منذ موت أمي، أنني أدافع عن شيء لا أستطيع التفريط فيه. لم أكن أدافع عن النظام، ولا عن الدولة، ولا عن الخمر، ولا عن الفساد، ولا عن العالم كما هو. كنت أدافع عن حقي في ألا يتحول غضبي إلى سكين في يد غيري.

قاطعني صديقي، الذي كان سبب وجودي هنا.

وكانت مقاطعته أقسى من مقاطعة أي واحد منهم. الغريب حين يقاطعك لا يجرحك كما يفعل الصديق. هو يعرف شيئًا من ماضيك، من طفولتك، من اسمك قبل السجن، ومع ذلك يختار أن يقف في الجهة الأخرى. قال بصوت لم أعرفه فيه من قبل، صوت بدا كأنه استعاره من الأمير:

اسمع. الحق يقول :فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

سمعته يقرأ الآية، وشعرت أن صوته ليس صوته. كأن الجماعة دخلت حنجرته، وأخرجت الصديق القديم منها. ذلك الولد الذي كان يضحك معي في الإعدادي، الذي كان يقاسمنا الخبز والزيت في الاستراحة، الذي عانقني في الشارع وقال "توحشناك"، صار الآن يقرأ عليّ آية بطريقة تجعل من القتل بابًا إلى المعنى. رأيته فجأة ليس كشرير، بل كضحية تحولت إلى أداة. وهذا كان أفزع. لو كان شريرًا واضحًا لارتحت. لكن أن ترى صديقك، ابن الحومة والمدرسة نفسها، وقد ابتلعه خطاب الموت، فذلك يجعل المسافة بينك وبين الهاوية أقصر مما تظن.

قلت له بهدوء موجوع:

واش نتا كتسمع راسك؟

نظر إليّ بقسوة وقال:

أنا كنسمع كلام اللّه.

قلت:

لا. كتسمع تفسير رجال بغاوك تسمع غير هاد الجهة من الكلام. واش القرآن كامل عندكم غير اقتلوا وقاتلوا وأعدوا؟ فين العدل؟ فين لا إكراه في الدين؟ فين من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا؟ فين الرحمة؟ فين العقل؟ فين السياق؟ واش كل آية نزلت في حرب معينة تولي عندكم رخصة مفتوحة باش تذبحو الناس في أي زمان ومكان؟

تحرك أحدهم بعصبية، لكن الأمير رفع يده فأوقفه. كان الأمير يريد أن يتركني أتكلم قليلًا، ربما ليرى إلى أي حد وصلت "شبهتي"، وربما ليستعمل كلامي لاحقًا دليلًا ضدي. أما أنا، فقد تابعت:

أنتم تفعلون بالقرآن ما فعلته الدولة بالقانون. الدولة تأخذ من القانون ما يحميها وتترك ما يحمي المواطن. وأنتم تأخذون من

النص ما يبرر عنفكم وتتركون ما يكسر قلوبكم. الدولة تقول إنها تحكم باسم النظام، وأنتم تقولون إنكم تحاربون باسم الله. لكن الفقير بينكما هو الضحية نفسها. إذا تكلم ضربته الدولة، وإذا غضب خطفتموه أنتم. إذا طالب بحقوقه سُجن، وإذا كفر بالظلم قلتم له تعال اقتل. أين يذهب الإنسان العادي؟ أين يذهب من يريد مدرسة ومستشفى وكرامة وخبزة بلا ذل؟ لماذا لا تتركون له إلا خيارين: الركوع للحاكم أو الموت تحت راية الأمير؟

كان الصمت يتكاثر حولي. كل رجل في الغرفة صار حجرًا. البخور لم يعد رائحته جميلة، صار خانقًا. المُصحف على الطاولة بدا كأنه يشهد بصمت على سوء الاستعمال. أردت أن أمد يدي إليه وأقول: سامحنا، نحن البشر نأخذ الكلمات الطاهرة ونغمسها في طين رغباتنا.

قال الأمير أخيراً:

أنت تتكلم بعقل مُلوث. ما زلت ترى الأمور بعين الجاهلية والديمقراطية وحقوق الإنسان. هذه مفاهيم صنعها الكفار ليبعدوا الناس عن حكم اللّه.

قلت:

إذا كانت حقوق الإنسان كفرًا لأنها تمنعك من قتلي، فأنا أختار هذا الكفر على إيمانك.

اشتعلت الغرفة.

قام أحدهم نصف قيام، وقال:

استغفر اللّه... واش كتسمعوا هاد الزنديق؟

صديقي أمسك ذراعي بخفة، لا أعرف هل يريد تهدئتي أم تحذيري. الأمير ظل جالسًا، لكنه صار أكثر برودة. قال:

أنت لا تعرف خطورة كلامك.

قلت:

وأنت لا تعرف خطورة أن تجعل اللّه محتاجًا إلى دم الناس كي ينتصر.

تغير وجهُه.

للمرة الأولى رأيت الغضب واضحًا فيه. قال:

اللّه لا يحتاج إلى أحد. نحن الذين نحتاج إلى طاعته.

وأضاف: وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ

قلتُ:

إذن لماذا تقتلون باسمه؟ إذا كان قادرًا على كل شيء، فلماذا يحتاج إلى جماعة سرية في المدينة القديمة، رجال فقراء ومكسورين، يختبئون خلف البخور، كي يدافعوا عنه؟ أعداء اللّه، كما تقولون، يسرِقون ويقمعون، نعم. لكن هل اللّه عاجز عنهم حتى تستعيروا له سكاكينكم؟ أم أنكم في الحقيقة لا تدافعون عن اللّه، بل عن صورتكم أنتم عن اللّه، وعن غضبكم، وعن فشلكم، وعن حاجتكم إلى الشعور بأنكم فوق الناس بعد أن جعلكم المجتمع تحت أقدامه؟

الضربة أصابت.

رأيت ذلك في العيون. لا لأنهم اقتنعوا، بل لأن الكلام وصل إلى مكان لا يحبون لمسه. كثير من التطرف ليس بحثًا عن اللّه، بل انتقام من الإحساس بالإهانة. الإنسان الذي أُذل طويلًا يريد يومًا أن يشعر أنه جندي في جيش السماء. يريد أن يتحول من لا شيء إلى حامل حقيقة مطلقة. من شاب عاطل أو سجين سابق أو فاشل اجتماعي إلى رجل يخافه الناس، وتخاف منه حتى نفسه. والجماعة تمنحه هذا التحول. تقول له: لست فاشلًا، أنت مُختار. لست

حاقدًا، أنت غيور على الدين. لست قاتلًا، أنت منفِذ حُكم. وهكذا تتطهر النفس من مسؤوليتها بدم الآخرين.

قال أحدهم بصوت منخفض لكنه حاد:

الأخ فيه شُبهة كبيرة.

ابتسمت بمرارة. ها هي الكلمة التي تسبق الإدانة. شُبهة. عند الدولة كنت صاحب سوابق. عندهم أنا صاحب شبهة. كل سلطة تحتاج كلمة تختصر بها الإنسان قبل أن تكسره. قلت:

نعم، فيّ شبهة. شبهة أنني لا أريد أن أقتل. شبهة أنني أظن أن الطفل المسيحي ليس عدو اللّه. شبهة أنني أرى اليهودي إنسانًا قبل أن يكون عنوانًا في خطبة. شبهة أنني لا أريد لوطني أن يصبح سوريا أخرى. شبهة أنني أكره الفساد، لكنني لا أرى الحل في ذبح الناس. إذا كانت هذه شبهة، فأنا مُقتنع بها.

صديقي قال بعصبية:

راك ما فاهم والو. هادو ماشي ناس عاديين. هادو كفار ومجرمين وطواغيت.

قلت له:

وأنا؟ شنو كُنت البارح؟ كنت خارج من الحبس، بلا دار، بلا فلوس. جيتي عندي، عطيتيني قهوة وفلوس وقلتي ليا نعاونك. واش عاونتيني ولا جبتيني باش نولي عندهم عبد؟ واش هادي هي الأخوة؟ تستغل واحد ماتت مو وبقا وحداني باش تدخلو لطريق الدم؟

انخفضت عينه لحظة.

وهذه اللحظة كانت كافية لأعرف أنه ما زال هناك شيء فيه لم يمُت. لكنه رفعها سريعًا وقال:

أنا بغيت ليك الخير.

قلت:

الخير ما كيجيش مخبي فدار وبقَسم ما مفهومش وبأمير ما كيتناقش.

قال الأمير، وقد بدا أنه قرر إنهاء الجدل:

كفى.

الكلمة نزلت كأمر عسكري. سكت الجميع. نظر إليّ طويلاً ثم قال:

أنت اليوم ضيف عندنا. ولن نحاسبك على جهلك. لكن اعلم أن الطريق إلى اللّه يحتاج إلى تربية، وأن النفس الأمارة بالسوء تُجادل كثيراً قبل أن تنقاد للحق. سنتركك تفكر. لكن إياك أن تظن أن العهد لعبة.

قال الحقُ سُبحانه:

الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ.

العهد.

عاد الحبل إلى عُنقي.

قلت:

أنا لم أفهم العهد حين أقسمت.

قال:

وقد أقسمت.

قلت:

القسم بلا معرفة ليس عهدًا، بل خُدعة.

اقترب رجلان قليلاً. لم يهدداني صراحة، لكن جسدي فهم ما لم تقله الكلمات. هنا، في هذه البيوت المغلقة، لا يحتاج العنف

إلى إعلان. يكفي أن يتقدم رجلان بخطوة واحدة. صديقي بدا مرتبكًا. ربما لم يكن يريد أن يصل الأمر إلى هذا الحد. ربما ظن أنني سألين، سأسمع، سأُوافق، سأجد في الجماعة تعويضًا عن موت أمي ورفض المجتمع. لم يتوقع أنني سأجادلهم كمن ليس لديه شيء يخسره. لكنني، في الحقيقة، كان لدي شيء أخاف عليه: ما تبقى من نفسي.

قلتُ للأمير:

سأخرج.

قال:

ليس الآن.

قلت:

لماذا؟

قال:

لأنك مضطرب، وقد تقول ما لا ينبغي أن يُقال.

ضحكت دون أن أريد.

قلت:

زوينة هادي. الدولة حبساتني حيث قالت يمكن نقول ما لا ينبغي، وأنتم بغيتو تحبسوني حيث يمكن نقول ما لا ينبغي. الفرق بينكم شنو؟ اللحية؟

ساد صمت قاتل.

ثم صَفعنِي أحدهم.

لم تكن الصفعة قوية جدًا، لكنها كانت كافية. ليس ألمها ما أوجعني، بل معناها. المعنى أن الحوار انتهى، وأن الجسد دخل إلى النقاش. في بلادنا، حين تخسر السلطة الكلام، تبدأ اليد. عند المخزن أو عند الجماعة، لا فرق. تلسعك الصفعة لتذكرك أن أفكارك تسكن في جسم قابل للإهانة.

وضعت يدي على خدي، ونظرت إلى الرجل الذي ضربني. لم أرُد. لو رددت، ربما انتهى كل شيء. قلت فقط:

ها هي الرحمة.

الأمير قال:

خذوه إلى الغرفة الأخرى حتى يهدأ.

الغرفة الأخرى.

كم من غرف أخرى في هذا الوطن. في المخفر هناك غرفة أخرى. في السجن هناك زنزانة عقاب. عند الجماعة هناك غرفة أخرى. دائمًا هناك غرفة مخصصة لمن لا يفهم بسرعة. أمسك أحدهم بذراعي. صديقي قال:

خليه، أنا نهضر معاه.

قال الأمير:

أنت جِئت به. إذن أنت مسؤول عنه.

هذه الجملة جعلت صديقي يرتجف. رأيت الخوف في وجهه. لم يعد وسيطًا، صار متهمًا معي. الجماعة لا تسمح لك أن تفشل في جلب الضحايا. كل واحد يراقب الآخر. العبودية هنا متبادلة.

أدخلوني إلى غرفة صغيرة. ليس فيها إلا حصير ورف عليه بعض الكتب، ومصباح ضعيف. أغلقوا الباب. لم يقفلوه بالمفتاح، أو ربما فعلوا، لا أعرف. جلست على الأرض. خدي كان يحترق من الصفعة، لكن داخلي كان أكثر اشتعالاً. لم أكن أفكر في الهرب فقط. كنت أفكر في الطريق الذي أوصلني إلى هنا. السجن، موت أمي، الجوع، رفض العمل، صديقي، المال، الحمام، القهوة، المدينة القديمة، القسم، الأمير. لم يكن هذا مجرد فخ فردي. كان

نظامًا كاملاً من الخراب يقود الإنسان خطوة خطوة إلى حيث يستطيع الآخرون استخدامه.

قلت في نفسي:

هكذا يصنعون القاتل.

لا يولد القاتل دائمًا من حُب الدم. أحيانًا يولد من مدرسة فاشلة، ومستشفى مهمل، وأم تموت بلا علاج، وسجن يكسر ولا يصلح، ومجتمع يرفض الخارج من السجن، وصديق يفتح له بابًا مسمومًا، ورجل بلحية يقول له إن غضبه مقدس. ثم، حين ينفجر، يقول الجميع: وحش. لا أحد يسأل من ربىّ الوحش في الظلام.

لكنني لم أرد أن أكون وحشهم.

حتى لو بقيت جائعًا.

حتى لو رجعت إلى الشارع.

حتى لو لم يكن لي مكان.

كان هناك شيء في داخلي، ضعيف لكنه عنيد، يقول: إذا خسرت كل شيء، لا تخسر حقك في ألا تقتل. قد تكون سارقًا، سجينًا، ابن أم ماتت في غيابك، فقيراً، بلا دار، بلا عائلة، لكنك لست مضطرًا أن تضيف دمًا إلى هذا الخراب كي تثبت أنك رجل.

الرجولة ليست أن تحمل سكينًا باسم اللّه، بل أن تقف أمام جماعة تريد تحويل حزنك إلى جريمة وتقول: لا.

بعد وقت، دخل صديقي.

كان وجهه متعبًا. جلس أمامي. لم يتكلم أولًا. ثم قال:

علاش درتي هكا؟

قلت:

واش نتا مريض فكرك القلاوي، هادشي راه مكيتقبلوش العقل.

قال:

راك غادي تقتل راسك.

قلت:

واش كانوا غادي يخدموني ولا يقتلوني بشوية؟

قال:

هما ماشي كيفما كتظن.

قلت:

بل أسوأ. على الأقل المخزن ما كيقولش ليا أنا كنضربك وكنعدب القحبة يماك باش تدخل الجنة.

نظر إليّ طويلًا. ثم قال بصوت منخفِض:

ما عندك فين تمشي.

قلت:

عارف.

قال:

ما عندك خدمة.

قلت:

عارف.

قال:

ما عندك عائلة.

قلت:

عارف.

قال:

إذن شنو غادي دير؟

سَكِتُّ.

هذا السؤال كان أقوى من كل آياتهم. ماذا سأفعل؟ الرفض وحده لا يكفي. أن تقول لا للجماعة لا يمنحك خبزة. أن ترفض القتل لا يمنحك سريرًا. أن تختار العقل لا يمنحك وظيفة. وهنا

تكمن قوة الشر: يقدم لك جوابًا عمليًا حين تكون الحقيقة عاجزة عن إطعامك. نظرت إليه وقلت:

ما عارفش.

قال:

إذن خليك. غير سمع. ماشي ضروري دير شي حاجة دابا.

قلت:

هكذا يبدأ كل شيء. غير سمع. غير حضر. غير أقسم. غير وصل الأمانة. غير سكتْ. حتى يجي نهار يقولوا ليك غير ديرها.

لم يُجب.

قلت:

واش راضي على راسك؟

انكسر وجهه لحظة. قال:

أنا غير بغيت نعِيش.

قلت:

حتى أنا.

قال:

ولكن الحياة ما كتعطيش للضعاف.

قلت:

والقتل كيولي قوة؟

قال:

في هاد العالم، اللّي ما كيخوفش الناس، كيزطموا عليه.

قلت:

وأنت منين وليتي كتخوف الناس، واش حسّيتي براسك حُر؟

سكِت طويلاً.

ربما لأول مرة، لم يجد آية جاهزة ولا كلام الأمير. رأيت الصديق القديم يعود لحظة من تحت طبقات التنظيم. قال بصوت خافت:

ما بقيت عارف والو.

هذه الجملة كانت أصدق شيء قاله منذ دخلنا ذلك البيت.

قلت:

إذن خرجني من هنا.

نظر إلى الباب، ثم إليّ. قال:

ما ساهلاش.

قلت:

ما طلبتش الساهل. طلبت غير ما نوليش عبد جديد.

ظل ساكتًا. ثم وقف.

قال:

نحاول.

خرج.

بقيت وحدي في الغرفة الصغيرة، أسمع أصواتًا خافتة من الصالة. لم أكن أعرف هل سيعود لينقذني، أم ليخبرهم أنني خطر، أم سيهرب وحده من مسؤوليته. لكنني كنت أعرف أن تلك الليلة ستحدد شيئًا في حياتي. إما أن أخرج إلى الشارع فقيراً، مكسورًا، لكنني أملك رفضي، أو أبقى داخل جماعة تمنحني خبزًا ومعنى مقابل أن أسلمها رأسي.

وفي تلك العتمة الخفيفة، تذكرت قبر أمي.

قلت لها في داخلي:

آ مي، خرجيني من هاد المصيبة.

ثم صححت نفسي.

لا.

الأمهات لا يخرجننا دائمًا. أحيانًا يتركن لنا ذكرى كافية كي نخرج أنفسنا.

وضعت يدي على خدي حيث الصفعة، وشعرت، للمرة الأولى منذ زمن، أن الألم قد يكون علامة حياة، لا هزيمة فقط.

كنت ما زلت حيًا.

وما دام الإنسان حيًا، يستطيع أن يقول لا، ولو كان لا يعرف أين سينام بعد ذلك.

٣٥

علمتُ بعد ذلك أنهم يخططون لشيء أكبر من كل ما تخيلته.

لم تكن المسألة، كما حاولوا أن يصوروها لي في البداية، مجلسًا للغضب، ولا جماعة من الشباب المقهورين الذين يجتمعون ليقرأوا النصوص ويشتموا الدولة ثم يتفرقوا كما يتفرق الفقراء بعد كل نقاش ساخن في مقهى شعبي. لم تكن المسألة خطابًا دينيًا متشنجًا فقط، ولا شهوة لغوية في تقسيم العالم إلى مؤمنين وطواغيت، ولا حقدًا نظريًا على الحانات والفساد والسياح ومقرات الدولة. كان وراء الكلام شيء مادي، ملموس، بارد، ينتظر أن يتحول من نية إلى جريمة. كان الكلام الذي سمعته في الصالة ليس إلا الواجهة النظيفة للخراب. أما الخراب الحقيقي فكان في الغرف المغلقة، في الأكياس، في الأدوات، في الهمسات، في العيون التي لا تنام إلا وهي تحلم بالدم.

طلبتُ الإذن أن أذهب إلى الحمام.

قلت لهم إنني أحتاج أن أتبول. كانت الجملة عادية، تافهة، جسدية، لكنها في تلك اللحظة كانت حبلًا رفيعًا بيني وبين الحقيقة. أشار لي أحدهم بيده دون أن ينهض، كأنهم اطمأنوا قليلًا بعد

جلوسي وصمتي في الغرفة التي وضعوني فيها، أو كأنهم اعتبروني قد دخلتُ إلى الفخ بما يكفي ليصير خروجي منه غير ممكن. نهضت ببطء، أحاول ألا أبدو مرتبكًا. في داخلي كان القلب يضرب كمن يريد أن يفضحني. عبرت الممر الضيق، وكان البخور ما يزال عالقًا في الهواء، لكن رائحته صارت عندي رائحة تواطؤ، رائحة تستر على شيء قذر. رأيت باب الحمام إلى اليمين، ورأيت بجانبه بابًا آخر شبه موارب.

لا أعرف لماذا فتحت ذلك الباب.

ربما لأن السجن علمني أن الأماكن تقول أسرارها لمن ينظر جيدًا. ربما لأن الخوف نفسه صار حاسة إضافية. وربما لأن شيئًا في داخلي، منذ أول آية قُرئت بطريقة السكاكين، كان يعرف أن خلف هذا البيت غرفة لا تشبه بقية الغرف. دفعت الباب قليلاً ودخلت خلسة. لم أبقَ طويلاً، لكن الزمن داخل تلك الغرفة تمدد بما يكفي ليغير حياتي كلها.

رأيت ما لم يكن ينبغي أن أراه.

ترسانة صغيرة من الأدوات الإجرامية، موضوعة بعناية لا تشبه الفوضى. أسلحة بيضاء حادة تلمع تحت ضوء خافت، مبالغ مالية

بالعملة الوطنية، أكياس، أقنعة، قفازات، مفاتيح، أوراق، وبعض الوسائل اللوجستية التي كانت تشير إلى أن الأمر ليس كلامًا فقط. رأيت إشارات إلى دراجة نارية، إلى أحزمة ناسفة، إلى مُتفجرات، إلى استعداد. لم تكن غرفة رجل غاضب من الفساد، بل غرفة خلية تعرِف أنها ستنتقل من الخُطبة إلى الفعل. هنا فهمت الطابع المزدوج لهؤلاء: إجرامٌ يلبس أيديولوجيا، وأيديولوجيا تحتاج إلى إجرام كي تثبت لنفسها أنها حية. كانوا لصوصًا للمعنى كما يسرق اللِص المال، لكنهم أخطر، لأن السارق يعرف غالبًا أنه يُخالف القانون، أما هؤلاء فيعتقدون أنهم ينفذون أمر السماء.

قلت في داخلي:

ما هذه الورطة؟

ما هذا الطريق الذي وجدت نفسي فيه؟

أنا الذي كنت أرفض أن أكون عبدًا للدولة، ها أنا أقف على عتبة عبودية أخرى أشد سوادًا. كنت معارضًا للنظام الحاكم، نعم، معارضًا للقمع، للنهب، لتقبيل الأيادي، للركوع، للاستبداد الذي يحول المواطن إلى كائن خائف. لكنني لم أخرج من قفص المخزن لأدخل قفص الأمير. لم أهرب من عبودية البشر المتوجين لأصير

عبدًا لكلمات تُقرأ بلا رحمة. كنت أقول لنفسي إنني أريد الحرية، فإذا بي أمام جماعة تريد أن تمنحني هوية جديدة بشرط أن أسلمها عقلي ويدي وضميري. أي لعنة هذه؟ أن يخرج الإنسان من سجن الدولة، ثم يجد نفسه أمام سجن أيديولوجي، له مفاتيح من آيات، وحراس من فقراء غاضبين، وجدار من يقين لا يشك.

عدت بسرعة إلى الممر.

وقفت لحظة قرب باب الحمام، غسلت وجهي بالماء، لا لأتنظف، بل كي لا يروا الرعب على ملامحي. كان الماء باردًا، لكنه لم يطفئ شيئًا. نظرت إلى وجهي في مرآة صغيرة متشققة. رأيت رجلًا لا يشبه الشاب الذي كان يبحث عن عمل قبل يومين. رأيت فخًا يمشي على قدمين. قلت لنفسي: يجب أن أخرج. لكن كيف؟ الباب الخارجي بعيد، والرجال كثيرون، وصديقي غير موثوق، والمدينة القديمة نفسها، بأزقتها، قد تتحول إلى شبكة إذا قرروا أنني خائن. ثم سمعت من الصالة أصواتهم. كانوا يتكلمون بصوت منخفض، لكن بعض الكلمات وصلتني كأنها خناجر.

كانوا يخططون.

سمعت ما يكفي لأعرف أنني لست مجرد شاهد. كانوا يتحدثون عن أهداف، عن أماكن في المدينة، عن حانات، عن أماكن يرتادها السياح، عن مقرات تابعة للدولة، عن توقيت قريب، عن أدوار، عن "مُباركة الشيخ"، عن ضرورة أن يكون العمل صادمًا. لم أسمع كل شيء، ولم أكن أريد أن أسمع كل شيء. التفاصيل نفسها كانت نجاسة. لكنني سمعت ما يكفي لأفهم أنهم يريدونني معهم. يريدون أن أكون جزءًا من هذا الجنون، لا متفرجًا عليه. ربما اختاروني لأنني خرجت من السجن، لأنهم يظنون أن السجن كسر صلتي بالعالم، لأنهم رأوا في موت أمي وقودًا، وفي جوعي قابلية للتشكيل، وفي غضبي على الدولة مدخلًا إلى حربهم.

كيف سأنجو من هذه الكارثة؟

إذا عارضت، قد يكون مصيري هو الذبح أو الاختفاء أو التبليغ عني بطريقة تجعلني أنا المتُهم. وإذا سكِتُ، سأكون شريكًا. وإذا هربت دون أن أفعل شيئًا، فقد يموت أبرياء لا أعرفهم. وإذا ذهبت إلى الشرطة، قد يسألونني أولًا: وماذا كنت تفعل معهم؟ كيف دخلت؟ لماذا أقسمت؟ لماذا لم تبلغ فورًا؟ في هذا البلد، حتى حين تحاول أن تمنع جريمة، قد تجد نفسك داخل ملف لا يرحم.

كنت محاصرًا من جهتين: جماعة تريد الدم، ودولة لا تثق في الفقراء حين يأتونها بالحقيقة. لكن وسط هذه الحيرة كلها، كان هناك شيء واحد واضحًا وضوح الجرح:

مُستحيل.

لن أقبل أن يُقتل إنسان بريء لا ذنب له.

لن أقبل، كيفما كانت المبررات، أن يتحول غضبي من الظلم إلى ظلم أكبر. لن أقبل أن يموت نادل في حانة لأنه فقير مثلي ويعمل حيث وجد رزقه. لن أقبل أن تموت سائحة لا تعرف شيئًا عن صراعاتنا لأنها اختارت أن ترى مدينة قديمة. لن أقبل أن يموت حارس بسيط في مقر إداري لأنه يتقاضى راتبًا هزيلًا ليطعم أبناءه. لن أقبل أن يُقتل إنسان باسم أمي، أو باسم فقري، أو باسم اللّه، أو باسم الوطن، أو باسم التحرر. لا. هناك خطّ، إذا عبره الإنسان، لا يعود ضحية فقط، بل يصير جلادًا. وأنا كنت قد عانيت ما يكفي من الجلادين لأعرف أنني لا أريد أن أكون واحدًا منهم.

نعم، يمكننا الخروج من زمن العبيد.

لكن ليس بالإرهاب.

ليس بهذه الطريقة الوحشية الهمجية.

ليس بتفجير أجساد لا تعرف أسماءنا، ولا بذبح الناس كي نثبت أننا غاضبون، ولا بتحويل الدين إلى علبة بارود، ولا بإشعال حرب أهلية ثم نسميها تطهيراً. الخروج من زمن العبيد يحتاج إلى مدرسة، إلى وعي، إلى كرامة، إلى تنظيم، إلى كلمة حرة، إلى عدالة، إلى شجاعة لا تقتل الأضعف منها. أما هؤلاء، فكانوا يريدون أن يحرقوا البيت لأن السقف فاسد، دون أن يسألوا أين سينام الأطفال بعد الحريق.

قلت في داخلي:

أهذا هو الإسلام؟

أهذا هو الدين الذي كانت أمي تضع يدها على صدرها حين تسمع آياته؟ أهذا هو الدين الذي كانت تقول باسمه :اللّه يهدي ما خلق؟ أهذا هو الدين الذي تُقرأ فيه الفاتحة على قبر الفقراء؟ أم أن هؤلاء سرقوا منه ما يناسب جوعهم إلى السلطة، وتركوا أمهاتنا يرددن منه الرحمة في المطابخ والمقابر؟ لا. لا أستطيع أن أقبل أن يكون اللّه، إن كان اللّه، محتاجًا إلى قنبلة في يد شاب مكسور. لا أستطيع أن أقبل أن تكون الجنة طريقها جثة بريء. إذا كان هذا دينًا،

فهو دينهم هُمْ، دين الغُرف المغلقة واللحى المتجهمة والأمراء الصغار. أما دين أمي، رغم بساطته، فقد كان أوسع من هذا الظلام.

دخلت وجلست.

جلست وكأنني معهم في الخطة.

هذه أصعب لحظة: أن تجلس بين مجرمين محتملين وتخفي أنك عرفت. أن تجعل وجهك صامتًا، لا موافقًا تمامًا ولا معترضًا تمامًا. أن تسمع وأنت تخطط للهروب من السمع. جلست على الحصير، ووضعت يدي على ركبتي، وراقبت الأمير وهو يتهيأ للكلام. كنت أعرف الآن أن كل كلمة منه ليست مجرد خطاب، بل خطوة نحو دم. صار وجهه عندي لا يشبه وجوه الوعاظ، بل يشبه وجوه الضباط الذين يرسلون الجنود إلى المعارك وهم يجلسون بعيدًا عن الرصاص. كل أمير صغير يحب أن يجد من يموت بدلًا عنه.

بدأ الأمير يشرح.

قال بصوت مهيب:

بسم الله الرحمن الرحيم. فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم.

قرأ العبارة وكأنه يفتح بها بابًا إلى الفعل. ثم أضاف آية أخرى:

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

كان يختار كلماته بدقة. لا يشرح السياق، لا يتحدث عن ضوابط، لا عن رحمة، لا عن نفس بريئة، لا عن واقع بلد، لا عن نتائج، لا عن أطفال، لا عن أمهات، لا عن خراب. النص عنده ليس بحرًا، بل سلاح. يقتطع منه ما يصلح لرسم طريق واحد: نحن مظلومون، هم أعداء، إذن القتل عبادة. كم هي بسيطة خرائط المجرمين حين يلبسون ثوب المقدس. العالم كله عندهم خطان: حق وباطل. لكنهم دائمًا، بطريقة عجيبة، يقفون في جهة الحق، وكل من يخالفهم يصبح فتنة يجب أن تُزال.

ثم قال:

بمباركة من شيخنا وإمامنا الأعظم في سوريا، سنعمل غدًا، بحول اللّه، على تنفيذ العملية.

لم أسمع التفاصيل كاملة، أو لم أرد أن أحتفظ بها. كان يتحدث عن أهداف متفرقة، عن ضربات يريدون منها إرباك المدينة، عن رسالة، عن عقاب، عن بداية. وكلما تكلم، كنت أرى في خيالي

وجوهًا لا يعرفها. عامل يمسح الطاولات في حانة. سائحان يضحكان لأنهما لا يعرفان أن الموت يخطط لهما في بيت قديم. شرطي بسيط واقف عند باب مقر، ربما يكره عمله لكنه يحتاج الراتب. امرأة تمر قرب المكان صدفة. طفل يطلب من أبيه أن يشتري له شيئًا. كل هؤلاء، في خطاب الأمير، لا وجود لهم. في خطته، الناس يتحولون إلى "أهداف". وكلمة هدف هي أول جريمة قبل الجريمة، لأنها تقتل الاسم قبل الجسد.

كنت أسمع وأقول في نفسي:

أي زمان هذا الذي نعيش فيه؟

أي زمن يجعل الشاب الذي خرج يبحث عن خبزة يجد نفسه في مجلس يقرر مصير الأبرياء؟ أي زمن يدفع الإنسان من السجن إلى الإرهاب، ومن الفقر إلى التكفير، ومن موت أمه إلى احتمال أن يجعل أمهات أخريات يبكين؟ أي زمن هذا الذي صار فيه الغضب يُشترى بسهولة من أرصفة البطالة، ثم يُباع في سوق الأيديولوجيا باسم اللّه؟ وأي حوار هذا الذي ينطق أحد أطرافه بالكلمات، فيرد الطرف الآخر بالطلقات؟ كيف صار الكلام عاجزًا إلى هذه الدرجة؟

كيف صار الإنسان المغربي، الذي كان يخاف على خبزته، مستعدًا فجأة أن يحرق مدينة لأنه لم يجد معنى آخر لقهره؟

كنت أتساءل: هل مرّ على المغرب في تاريخه كله سوء مثل هذا أو شبيه به؟ ربما عرفنا القمع، عرفنا سنوات الرصاص، عرفنا الفقر، عرفنا الحكرة، عرفنا الاستبداد، عرفنا الهجرة السرية، عرفنا المخزن، عرفنا السجون، لكن هذا شيء آخر: أن يتحول المقهور إلى مشروع قاتل. ألا يكتفي النظام بصناعة الضحايا، بل يترك الضحايا في العراء حتى تلتقطهم جماعات الموت وتصنع منهم سكاكين. الدولة تقول إنها تحارب الإرهاب، لكنها لا تسأل كثيراً: من أين يأتي هذا اليأس؟ من أين يأتي هذا الشاب الذي يفضل الموت على الحياة؟ من أين تأتي قابلية الإنسان لأن يصدق أميراً في غرفة مظلمة؟ الإرهاب لا يولد من آية وحدها، ولا من لحية وحدها، ولا من كتاب وحده. يولد حين تجتمع الهزيمة بالجهل، والفقر بالمهانة، والنص بالغضب، والقمع بانسداد الأفق.

لكن معرفة السبب لا تبرر الجريمة.

وهذه نقطة كان يجب أن أحفرها في قلبي. نعم، النظام مُجرم في حقنا. نعم، الفساد قاتل. نعم، السجون لا تصلح بل تكسر. نعم،

الفقر يدفع الناس إلى الهاوية. لكن من يقف عند حافة الهاوية لا يملك الحق في أن يدفع غيره إليها. المظلوم حين يقتل بريئًا لا يصير أقل ظلمًا لأنه بدأ ضحية. الجوع لا يمنح رخصة للدم. وموت أمي لا يبرر موت أم أخرى. هذه الجملة الأخيرة كانت تنقذني من السقوط: موت أمي لا يبرر موت أم أخرى.

كان الأمير يتكلم، والرجال من حوله يهزون رؤوسهم أو ينصتون بوجوه ميتة. لم يكن أحد يسأل. السؤال مات فيهم قبل الجريمة. هذا ما يسبق كل كارثة: موت السؤال. حين يصبح كلام الأمير لا يُعلى عليه، وحين تصبح الآية لا تُقرأ بل تُستعمل، وحين يصبح العدو كلمة جاهزة، وحين يصبح الإنسان هدفًا، فإن الجريمة تكون قد وقعت معنويًا قبل أن تقع في الشارع.

نظرت إلى صديقي.

كان جالسًا قرب الباب، وجهه شاحب قليلًا. هل كان يعرف التفاصيل كلها قبل هذه اللحظة؟ هل صُدم مثلي؟ أم أنه كان قد تجاوز هذه المرحلة وصار يرى الأمر عاديًا؟ لم أعرف. لكنه لم ينظر إليّ. كان يتجنب عيني، كأن عينيّ صارتا مرآة لا يريد أن يرى نفسه

فيها. كنت أتمنى أن يلتفت فأجد فيه حليفًا، ولو صغيراً. لكنه ظل صامتًا.

قال الأمير:

كل واحد منكم يعرف دوره. ومن خان العهد، فقد خان اللّه ورسوله وإخوانه، ولا يلومن إلا نفسه.

الخيانة.

ها هي الكلمة التي سيقتلون بها كل احتمال للانسحاب. إذا رفضت، فأنت خائِن. إذا سألت، فأنت مريض. إذا خفت على الأبرياء، فأنت ضعيف الإيمان. كل جماعة مغلقة تحتاج إلى هذه الكلمات كي تجعل الخروج منها يبدو جريمة لا اختيارًا. في السجن، الهروب جريمة. هنا، التفكير في الخروج خيانة. وكأن الإنسان لا يحق له أن يراجع نفسه حين يكتشف أنه خُدِع.

كنت أفكر بسرعة.

لا يمكن أن أواجِههُم الآن. لا يمكن أن أصرخ. لا يمكن أن أقول إنني رأيت الغرفة. لا يمكن أن أهاجم الأمير. يجب أن أخرج أولًا. يجب أن أصل إلى مكان آمن. يجب أن أبلغ بطريقة ما. لكن من؟ كيف؟ هل أذهب مباشرة إلى مركز الشرطة؟ هل سيصدقونني؟

هل سيعتقلونني معهم؟ هل أذهب إلى صحفي؟ إلى جمعية؟ إلى إمام عاقل؟ الوقت ضيق. الغد قريب. كل تأخير قد يعني موت ناس. لكن كل حركة خاطئة قد تعني موتي أو سجني.

تذكرت قبر أمي.

تذكرت كيف كنت أقول لها: سأعود. والآن، إن سكت، بأي وجه أزور قبرها؟ هل أقول لها: سامحيني، لقد خرجت من السجن لأشارك في قتل أبرياء؟ هل أقول لها: كانوا يقولون اللّه، فخفت أن أعصيهم؟ أمي، التي كانت تكره حتى أن أؤذي حيوانًا، كيف سأجعل حزنها ذريعة لجريمة؟ لا. لا يمكن.

رفع الأمير يده وختم المجلس بدعاء طويل. كانوا يؤمّنون خلفه. وأنا كنت أردد "آمين" بصوت خافت حتى لا أنكشف، لكن داخلي كان يقول شيئًا آخر:

يا رب، إن كنت موجودًا، فأنقذ الناس من الذين يدّعون أنك أمرتهم بقتلهم.

بعد الدعاء، بدأوا يتفرقون داخل البيت، بعضهم إلى المطبخ، بعضهم إلى غرفة أخرى، وبعضهم بقي قرب الأمير. حاولت أن أبدو متعبًا. قلت لصديقي بصوت منخفض:

خاصني نخرج نشري شي حاجة ناكلها، راسي داخ عليا.

نظر إليّ بعينين ضيقتين:

دابا؟

قلت:

ما كليتش مزيان نهار كامل. غير نمشي ونرجع.

لم يصدق تمامًا. لكن ربما كان يريد أن يُصدق. ربما كان هو نفسه يبحث عن مخرج ليخرجني من الورطة التي أدخلني إليها.

قال:

نجي معاك.

كان ذلك خطرًا ونجاة في الوقت نفسه. إذا جاء معي، لن أستطيع الهرب بسهولة. لكنه قد يحمي خروجي من البيت. وافقت. استأذن من أحدهم، فقال له ألا يتأخر. خرجنا إلى الزقاق.

ما إن دخلنا الأزقة حتى شعرت أن الهواء صار حياة. لم أكن حرًا بعد، لكنني خارج الصالة. مشينا قليلاً في صمت. ثم قلت له:

واش كنتي عارف؟

لم يجب.

أمسكت ذراعه بقوة وقلت:

واش كنتي عارف أنهم غادي يقتلوا الناس؟

قال بصوت متوتر:

خفِض صوتك.

قلت:

جاوبني.

قال:

ما كنتش عارف كلشي.

قلت:

ولكن كنتي عارف الطريق فين غادية.

سكِت.

قلت:

خاصنا نوقفو هادشي.

نظر إليّ كأنني قلت كفرًا داخل كفر. قال:

نتا حمقتي؟ غادي يذبحونا قبل ما نوصلو لأول بوليسي.

قلت:

وإذا سكتنا؟ غادي يموتو ناس.

قال:

وأنا شنو دخلني؟ واش أنا اللي صنعت هاد البلاد؟ واش أنا اللي فقرت الناس؟ واش أنا اللي قتلت مك؟ كل واحد كيقلب على نجاة ديالو.

قلت:

نجاتك ما خاصهاش تكون فوق جثث الناس.

قال بحدة:

الهدرة ساهلة. نتا ما عندك لا دار لا خدمة لا والو. غدا تموت فالزنقة وما يسول فيك حد. هادو على الأقل عطاوك بلاصة.

قلت:

عطاووك قفص.

قال:

القفص اللي فيه خبز حسن من الحرية اللي فيها الجوع.

توقفت.

هذه الجملة كانت خلاصة زمنُ العبيِد. القفص الذي فيه خبز أحسن من الحرية التي فيها الجوع. كيف أرد على رجل قال الحقيقة القذرة؟ الحرية الجائعة صعبة. الكرامة بلا سقف باردة. العقل لا

يشتري دواء. لكنني كنت أعرف أن القفص الذي يبدأ بخبز ينتهي غالبًا بدم. قلت:

اليوم خبز، غدا عملية، من بعد موت، من بعد إما قبر وإما حبس مؤبد. واش هادي نجاة؟

قال:

ما عارفش.

قلت:

إذن بقا معايا.

نظر إليّ طويلًا. كان فيه صراع حقيقي. لم يكن شيطانًا. كان عبدًا يحاول أن يبرر سيده لأنه خاف من العودة إلى العراء. قلت له بهدوء:

سمعني. ماشي ضروري تكون بطل. غير ما تكونش سبب فموت ناس.

هذه الجملة كسرت شيئًا في وجهِه.

أخفض عينيه. قال:

شنو غادي نديرو؟

كنت قد بدأت أسمع قلبي بطريقة أخرى. الخوف لم يختف، لكنه تحول إلى خُطة. لم تكن خطة معقدة، ولا بطولية، ولا مضمونة. قلتُ:

نمشيوا لمكان عام. نعطيوا المعلومة بطريقة ما بسرعة.

قال:

البوليس؟

قلت:

ما عندناش خيار دابا. ولكن خاصنا نكونو حذرين.

قال:

إلى عرفو هما، سالينا.

قلت:

إلى دارو العملية، سالينا حتى حنا، ولكن من الداخل.

لم يُجب.

مشينا أكثر. خرجنا من الأزقة الضيقة إلى شارع أوسع. كان الناس يمشون عاديًا. بائع متجول ينادي، امرأة تجر طفلًا، رجل يضحك في هاتفه، دراجة تمر بسرعة. كل هؤلاء لا يعرفون أن في بيت قريب رجالًا يخططون لتحويل الغد إلى جحيم. شعرت بثقل

رهيب. المجتمع كله يعيش فوق طبقات من الخطر، ولا يدري. الدولة تراقب ما تريد، وتفشل غالبًا في رؤية ما تساهم في صنعه. والناس تمشي، تشتري الخبز، تسبّ الغلاء، تحلم بيوم أقل سوءًا، بينما الموت يكتب أسماءهم دون أن يعرفهم.

في تلك اللحظة، فهمت أن المعارضة الحقيقية ليست أن تشتم النظام فقط.

وليست أن ترفع سلاحًا ضده.

المعارضة الحقيقية أن تمنع الظلم من أن يتكلم باسمك. أن ترفض أن يستعمل أحد جوعك ليقتل جائعًا آخر. أن تقول للدولة أنتِ مجرمة، وتقول للجماعة أنتم مجرمون أيضًا. أن تقف في المنتصف، لا لأنك مُحايد، بل لأنك ترفض أن تختار بين جلادين. وهذا أصعب موضع. لأن كل طرف سيكرهك. الدولة ستراك إرهابيًا محتملًا، والجماعة ستراك خائنًا، والمجتمع سيقول: بعد من الصداع .لكن ربما الحرية تبدأ حين لا تجد معسكرًا مريحًا تختبئ فيه.

قلت لصديقي:

غدا إذا مات شي واحد، غادي يكون الدم علينا حتى حنا.

قال بصوت ضعيف:

سكت.

قلت:

لا. ما غاديش نسكت.

وهنا، لأول مرة، لم أكن أقولها كغضب، بل كقرار.

لم أكن أعرف إن كنت سأنجو.

لم أكن أعرف إن كان صديقي سيبقى معي أو يخذلني.

لم أكن أعرف إن الشرطة ستصدقني أو تدفنني في ملف جديد.

لم أكن أعرف إن الجماعة ستلحق بي.

لكنني عرفت أنني، بعد كل ما خسرته، لا أريد أن أخسر آخر ما بقي: القدرة على أن أقول لا حين يريدون مني أن أصير قاتلاً.

وفي تلك اللحظة، وسط الشارع، بين الباعة والضجيج والسيارات، شعرت أن أمي تمشي إلى جانبي. لا كروح خارقة، ولا كحلم، بل كذكرى أخلاقية. كأنها تقول لي، بلغتها البسيطة التي لا تحتاج إلى آيات كثيرة:

ما تقتلش، آ ولدي.

وكان ذلك كافيًا.

٣٦

ذهبنا إلى الشرطة.

لم تكن المسافة بين الزُقاق ومركز الشرطة طويلة، لكنها بدت لي أطول من الطريق الذي قطعته من السجن إلى قبر أمي. في تلك المسافة القصيرة، كان العمر كله يمشي معي: أمي في التراب، السجن في عظامي، البيت الذي صار لغرباء، الجوع الذي علمني أن الخبز قد يساوي مبدأ، وصديقي الذي يسير جانبي كمن يسير إلى حتفه أو خلاصه ولا يعرف الفرق بينهما. كان الليل قد بدأ يزحف على المدينة، لكن الشوارع لم تكن مظلمة تمامًا. هناك أضواء محلات، عربات مأكولات، رجال يضحكون، نساء يحمِلن أكياسًا، أطفال يركضون، وكل هؤلاء كانوا أحياءً لأنهم لا يعرفون أن الموت قريب منهم إلى هذه الدرجة.

مشيتُ وأنا أحس أن كل خطوة خيانة لطرف ونجاة لطرف آخر.

إذا ذهبت إلى الشرطة، فأنا خائن في عُرف الجماعة. وإذا لم أذهب، فأنا شريك في دم الأبرياء. وإذا صدقتني الدولة، ربما أنقذتُ ناسًا. وإذا لم تصدقني، ربما أعود إلى الزنزانة، لكن هذه المرة لا بتهمة سرقة صغيرة، بل بتهمة أكبر من حياتي كلها. كنت أفكر في

هذا التناقض القاتل: الدولة التي ظلمتني، والتي سجنتني، والتي لم تعلمني ولم تُعالج أمي ولم تنقذني من الفقر، هي نفسها التي عليّ أن أذهب إليها الآن كي أنقذ الناس من جماعة تريد قتلهم باسم اللّه. أي زمن هذا؟ أي وطن يجعل المظلوم يستنجد بظالمه كي يحميه من ظالم آخر؟ وأي عُبودية أعمق من أن لا يجد الإنسان بابًا للنجاة إلا عند من ساهم في غرقه؟

قال صديقي بصوت خافت:

مازال يمكن نرجعو.

لم أنظر إليه. قلت:

نرجعو فين أولد القحبة؟ للدار اللي فيها الأمير؟ ولا للزنقة اللي غادي نموتو فيها بالندم؟ زيد وسد كرك ها العار.

قال:

إلى بلغنا، غادي نمشيو فيها حتى حنا.

قلت:

يمكن. أنا أش داني لهاد القرع نمشط ليه راسو أصلاً.

قال:

يمكن؟ غير يمكن؟ راه القضية مقودة ماشي لعب.

قلت:

عارف.

قال:

أنا ما بغيتش نمُوت.

توقفت لحظة ونظرت إليه. كان وجهه شاحبًا. رأيت فيه الطفل الذي كان يجلس معي في الإعدادي، ورأيت فيه الرجل الذي كاد يصير أداة قتل، ورأيت فيه عبدًا آخر من عبيد هذا الزمن، عبدًا لا يلبس قيدًا في يده، بل يلبس خوفًا في صدره. قلت له:

حتى أنا ما بغيتش نموت. ولكن ما بغيتش نعيش قتال.

لم يُجب.

واصلنا المشي.

حين وصلنا إلى مركز الشرطة، شعرت أن رائحة السجن عادت من جديد. الباب، الحارس، الجدار، النظرات، كل شيء كان يقول لي إنني عدت إلى فم الوحش الذي لفظني قبل ساعات فقط من هذه الحياة الجديدة. هناك فرق بين أن تدخل مركز الشرطة كمواطن جاء ليبلغ عن خطر، وأن تدخله وأنت تحمل في وجهك ماضي سجين. المواطن العادي يدخل ومعه احتمال أن يُسمع. أما الخارج

من السجن، فيدخل ومعه حكم سابق غير مكتوب: أنت متهم حتى تثبت أنك أكثر من متهم، وأحيانًا لا تكفي الحياة كلها لإثبات ذلك.

قلت لحارس الأمن:

بغيت نهضر مع شي مسؤول. الأمر خطير.

نظر إليّ من رأسي إلى قدمي، كما ينظر الناس إلى من لا يثقون في نظافته. قال:

شنو كاين؟

قلت:

معلومات على جماعة كتخطط لعملية إرهابية.

تغير وجهه.

لكن ليس كما توقعت. لم يصبح وجهه ممتنًا، ولا متوترًا فقط، بل صار حذرًا مني. كأن المعلومة لم تكن بلاغًا، بل اعترافًا. أدخلنا. جلسنا في مكتب ضيق، ثم جاء رجل بملامح جامدة، لا أعرف رتبته، لكنني عرفت من طريقة جلوسه أنه تعود أن يصدق نفسه أكثر مما يصدق الآخرين. سألني عن اسمي، ثم عن بطاقتي، ثم عن سوابقي. عند كلمة السوابق، رفع عينيه نحوي.

قال:

كنتِ فالحبس؟

قلت:

نعم.

قال:

على شنو؟

قلت:

سرقة.

ابتسم ابتسامة صغيرة، لا تكاد تُرى، لكنها كانت كافية لتقول كل شيء. قال:

ودابا جاي تبلغ على إرهابيين؟

قلت:

جاي نمنع حمام دم.

قال:

كيفاش دخلتي عندهم؟ وباش عرفتيهم؟ تكلم كنسمعك.

سأل كما توقعت. وكان السؤال عادلاً في ظاهره، لكنه في العمق كان حبلاً. شرحت له كل شيء: صديقي، القهوة، المال، الحمام، الذهاب إلى المدينة القديمة، القسم الذي لم أفهمه، الغرفة،

الأدوات، الخطة، الأهداف، الكلام، الأمير، الآيات، كل شيء. كنت أتحدث بسرعة لأنني كنت أخاف أن يضيع الوقت. كان ينظر إليّ أحيانًا، ويكتب أحيانًا، ويسأل أحيانًا أسئلة باردة: من كان حاضرًا؟ ما الأسماء؟ العنوان؟ هل أقسمت؟ هل قبلت؟ هل أعطوك دورًا؟ هل كنت تعرف مسبقًا؟ هل صديقك ينتمي إليهم؟ هل أنت تنتمي إليهم؟

كل سؤال كان يحفر تحتي حفرة.

قلت له:

أنا جيت عندكم باش نبلغ.

قال:

ولكنك كنت معهم.

قلت:

دخلت مخدُوع.

قال:

وأديت القسم.

قلت:

قبل ما نعرف.

قال:

وشفت الأدوات وما خرجتيش مباشرة.

قلت:

كنت خايف.

قال:

وجلستي حتى شرحوا الخطة.

قلت:

باش نفهم ونبلغ.

قال:

أو باش تشارك؟

صمِتُّ.

ها هي الدولة، كما توقعت. لا ترى الإنسان وهو يحاول أن يمنع الموت، بل تراه كملف محتمل. قلت له:

لو كنت باغي نشارك، علاش غنجي عندكم؟

قال ببرود:

يمكن حيث خفت. يمكن حيث وقع خلاف. يمكن حيث باغي تخرج راسك بعد ما تورطتي.

قلت:

ويمكن حيث ما بغيتش الناس تموت.

لم يجب.

أخذوا صديقي إلى غرفة أخرى. بدأ التحقيق منفصلًا. لم أعد أراه. شعرت أنني فقدت آخر شاهد على خوفي وقراري. بقيت وحيدًا أمام الأسئلة. ومع مرور الوقت، لم أعد أعرف هل أنا مُبلِغ أم مُعتقَل. تغيرت اللغة حولي. في البداية قالوا "معلومات"، ثم قالوا "تصريحات"، ثم "محضر"، ثم "صلة"، ثم "اشتباه". الكلمات مثل الدرج، تنزل بك درجة درجة إلى القاع دون أن تشعر. طلبت أن أتصل بأحد. بمن؟ لا أحد. أمي ماتت. العائلة غائبة. لا محام. لا بيت. لا شاهد إلا صديقي الذي لا أعرف ماذا يقول الآن تحت ضغط الخوف والتعذيب. قلت لهم إن الوقت يمر، وإن عليهم التحرك. قالوا إنهم يتحركون، لكنني رأيت أنهم يتحركون نحوي بقدر ما يتحركون نحو الجماعة.

في آخر الليل، جاءت أخبار عن مداهمات.

سمعت من بعيد أصواتًا في الممر، حركة، هواتف، أوامر. عرفت أنهم داهموا البيت. عرفت أنهم وجدوا شيئًا. عرفت أن ما

قلته لم يكن وهمًا. جزء مني شعر بالراحة. ربما أنقذنا ناسًا. ربما لم يمُت أحد. ربما الأم التي كانت ستبكي غدًا ستنام الليلة دون أن تعرف أن ابنها نجا من موت لم يسمع به. ربما النادل سيعود إلى بيته. ربما الحارس سيشرب شايه. ربما السائح سيمشي في المدينة ويظن أنها مجرد مدينة جميلة لا يدري أن الموت كان يختبئ له في بيت قديم.

لكن الراحة لم تدم.

لأنهم حين تأكدوا أن الجماعة حقيقية، صاروا أكثر قسوة معي.

كأن صدق البلاغ لم يبرئني، بل ورطني أكثر. صاروا يقولون: كيف عرفت؟ كيف دخلت؟ لماذا اختاروك؟ ما علاقتك القديمة بهم؟ هل كنت مكلفًا بالتواصل؟ هل كان البلاغ محاولة لتخفيف العقوبة؟ كنت أصرخ تقريبًا:

أنا أنقذتكم...

لكن لا أحد يحِب أن يسمع هذه الجملة من فقير خارج من السجن. الدولة لا تحب أن يُنقذها من تحتقره. الدولة تريد أن تكون هي العارفة، هي اليقظة، هي العين التي لا تنام. أما أن يأتيها شاب بلا بيت، بلا أم، بلا ثمن قهوة، ويقول لها إن الخطر تحت أنفها،

فهذا يجرح كبرياءها. لذلك كان لا بد أن يتحول المُنقِذ إلى مُشتبه فيه، حتى يبقى وجه الدولة نظيفًا.

مرت الأيام.

أو ما يشبه الأيام.

لم أعد إلى الشارع. بقيت داخل الحراسة، ثم داخل الاعتقال، ثم داخل محضر طويل لا يشبهني. كُتبت أقوالي بعبارات لم أقلها، أو قيلت بطريقة تجعلني أكثر قربًا منهم. كلمة "حضرت" صارت "شاركت". كلمة "سمعت" صارت "اطلعت". كلمة "أقسمت دون علم" صارت "بايعت". كلمة "ذهبت للتبليغ" صارت "حاولت الانسحاب بعد انكشاف الخطة". كانوا يلبسونني جملًا كما ألبسوني في السجن لباس الإدانة أول مرة. قلت للمحقق:

هذا ليس كلامي.

قال:

وقع.

قلت:

لن أوقع.

قال:

إذن ستبقى هنا حتى تتذكر جيدًا.

ولأن الجسد أضعف من الحقيقة حين يكون وحده، وقعت في النهاية على أشياء لم تعد تشبهني. لا أريد أن أكون بطلاً مزيفًا في نهاية الرواية. نعم، وقعت. ليس لأنني اقتنعت، بل لأن الخوف والتعب والحرمان من النوم والإهانة تستطيع أن تجعل اليد تخون صاحبها. الدولة تعرف ذلك. والجماعات تعرف ذلك. كل سلطة تعرف أن الإنسان ليس عقلًا فقط، بل جسد يتعب، وعين تغفو، ومعدة تجوع، وظهر يؤلم، وقلب يريد أن ينتهي الألم ولو بتوقيع.

ثم بدأت المُحاكمة.

مُحاكمة.

يا لهذه الكلمة وهي تُقال في قاعة يضعون فيها صورة للعدالة، بينما العدالة نفسها تقف في الخارج ممنوعة من الدخول لأنها لا تملك بطاقة. دخلت القاعة وأنا مُكبل، ووجدت الوجوه تنظر إليّ كما لو أنني جئت من ظلام لا يريدون فهمه. الصحافة كانت هناك، تلتقط الصور، تبحث عن عنوان مثير: "تفكيك خلية إرهابية"، "سجين سابق ضمن شبكة خطيرة"، "مُخطط لاستهداف مواقع

حساسة". لم يكتب أحد: "شاب أبلغ عن جريمة فابتلعته الدولة".
لا أحد يحب هذا النوع من العناوين؛ إنه يُفسد الرواية الرسمية.

القاضي كان مرتفعًا على منصته.

وكل منصة، في هذا الوطن، تعلّم الجالس فوقها أن ينسى الأرض قليلاً.

سألوني، فأجبت. قلت إنني ذهبت لأبحث عن عمل. قلت إنني خُدعت. قلت إنني عارضتهم. قلت إنني رأيت الأدوات وسمعت الخطة. قلت إنني خرجت وبلغت الشرطة. قلت إنني لو كنت منهم لما جئت. قلت إن الأبرياء كانوا سيُقتلون. قلت إنني اخترت الدولة رغم أنها ظلمتني، لأنني لم أرد أن أختار الدم. قلت كل شيء. لكن الكلمات، حين تدخل قاعة محكمة وقد كُتب الحكم في عيون كثيرة قبل النطق به، تصبح مثل طيور تصطدم بزجاج لا تراه.

قال ممثل الحق العام إنني كنت جزءًا من الخلية.

قال إنني بايعت الأمير.

قال إنني كنت على علم بالخطة.

قال إن خروجي للتبليغ لم يكن توبة، بل مُناورة بعد خلاف داخلي.

قال إن سوابقي تثبت استعدادي للجريمة.

قال إنني خطير.

قال إن المجتمع يجب أن يُحمى.

وكنت أستمع إليه وأفكر: المجتمع؟ أي مجتمع؟ المجتمع الذي رفضني حين خرجت من السجن؟ المجتمع الذي ترك أمي تموت؟ المجتمع الذي لم يمنحني عملاً لأنه خاف من ماضي؟ المجتمع الذي دفعني إلى باب هؤلاء ثم يعاقبني لأنني دخلته؟ نعم، يجب أن يُحمى المجتمع، لكن منكم أيضًا. من الفقر الذي تصنعونه. من السجون التي تكسرون بها الشباب. من أبواب العمل التي تغلقونها في وجه من تريدون إدماجه. من الملفات التي تكتبونها بحبر الخوف لا بحبر الحقيقة.

وقف المحامي، وكان محاميًا عاديًا، مرهقًا، ربما آمن بي قليلاً وربما لم يجد في الملف إلا ثغرات يحاول أن يوسعها. قال إن تبليغي هو سبب تفكيك الخلية. قال إنني لم أشارك في أي فعل مادي. قال إنني لم أحرض. قال إنني رفضت الخطة. قال إنني تعاونت. قال إن العدالة ينبغي أن تميز بين من يبلغ عن الجريمة ومن يُخطط لها. لكن كلامه كان كمن يسكب كأس ماء على حريق

سياسي. الملف لم يكن ملفي وحدي. كان ملف الدولة وهي تريد أن تظهر قوية، حازمة، لا ترحم الإرهاب. وكان لا بد أن يكون هناك عدد، أسماء، أحكام ثقيلة، صورة للصرامة. في هذه الصور، لا مكان للتفاصيل الإنسانية. التفاصيل تزعج البلاغات الرسمية.

نظرت إلى صديقي.

كان في القاعة، متهمًا أيضًا. لم ينظر إليّ طويلًا. قال في أقواله أشياء مترددة، بعضها ساعدني وبعضها ورطني. لا أكرهه. لم أعد أملك رفاهية الكراهية. هو أيضًا عبد. خاف منهم، وخاف من الدولة، وخاف من الحقيقة، وخاف من نفسه. في زمن العبيد، حتى الشهادة لا تكون حرة تمامًا.

أردت أن أقول للقاضي شيئًا أخيراً.

سمحوا لي.

وقفت، أو حاولت أن أقف، وكانت القيود في يدي كأنها تسخر من كلمة العدالة. قلت:

سيدي القاضي، أنا لا أطلب الرحمة لأنني ملاك. أنا سرقت من قبل، ودخلت السجن، وأعرف أنني أخطأت. لكن في هذه القضية، أنا لم أذهب لأقتل. ذهبت مخدوعًا، وخرجت حين فهمت، وبلغت

لأنني لم أرد أن يموت الناس. كنت أستطيع أن أسكت. كنت أستطيع أن أهرب. كنت أستطيع أن أقول إن الدولة التي سجنتني لا تستحق أن أنقذها. لكنني لم أفكر في الدولة، فكرت في الأبرياء. فكرت في أمي، التي ماتت وأنا في السجن، وقلت إنني لا أريد أمًا أخرى تبكي ابنها لأنني خفت.

توقفت لحظة. القاعة كانت هادئة.

قلت:

أنا معارض للظلم. نعم. معارض للقمع. نعم. معارض للفقر الذي يصنع المجرمين ثم يعاقبهم. لكنني لست قاتلاً. إذا كان تبليغي جريمة، فقولوا للناس من الآن: من رأى خطرًا فليصمت، لأن الدولة ستأكُله كما يأكُله الإرهاب. قولوا لهم إن لا فرق بين من يحمل القنبلة ومن يحاول منعها إذا كان فقيراً وخارجًا من السجن. قولوا لهم الحقيقة: في زمن العبيِد، حتى قول لا قد يتحول إلى تهمة.

لم أعرف هل وصل كلامي.

ربما وصل إلى أحد في القاعة. امرأة في الخلف مسحت عينها. ربما كانت أمًا. ربما رأت فيّ ابنًا ضائعًا. لكن القاضي لم يكن أمًا. والقانون، حين يُستعمل بلا روح، لا أم له.

في يوم النطق بالحكم، كانت القاعة أكثر ازدحامًا.

كنت أعرف أن الحكم سيكون قاسيًا، لكنني لم أتوقع الكلمة كما جاءت. هناك كلمات لا يستطيع العقل أن يستقبلها من أول مرة. القاضي قرأ طويلًا، مواد، فصول، اعتبارات، خطورة، أمن، تنظيم، اشتراك، نية، عهد، مبايعة. ثم قالها:

الإعدام.

لم أسمع ما بعدها.

كأن أذني أُغلقتا كما حدث يوم أخبروني بموت أمي. الطنين نفسه عاد. الإعدام. كلمة واحدة تختصر الدولة حين تتخلى عن كل ادعاءاتها. الإعدام. لم أقتل أحدًا. لم أضع قنبلة. لم أحمل سلاحًا. ذهبت وأبلغت. ومع ذلك، الإعدام. يا لها من عدالة عمياء، لكنها ليست عمياء كما يقولون؛ إنها ترى جيدًا، لكنها تختار أين تنظر. ترى سوابقي ولا ترى تبليغي. ترى قسمي الذي لم أفهمه ولا ترى خوفي على الأبرياء. ترى فقري كدليل خطر ولا ترى فقرها هي كجريمة. ترى الدولة نفسها ضحية، ولا ترى الإنسان مسحوقًا بين إرهابين.

أمي ماتت مرة ثانية في داخلي.

لو كانت حية، ربما كانت ستصرخ في القاعة. ربما كانت ستسقُط. ربما كانت ستقول لهم: ولدي ما قتل حتى واحد .لكن أمي كانت في قبرها، وأنا كنت وحدي أمام حكم لا يشبه القانون بل يشبه الانتقام. في تلك اللحظة فهمت أن الدولة لم تعاقبني لأنني إرهابي فقط، بل لأنها لم تحتمل أن أكون بريئًا بطريقة تفضِحها. لو اعترفت ببراءتي، كان عليها أن تعترف أن الخارج من السجن قد يكون أكثر أخلاقًا من مؤسساتها، وأن الفقير قد ينقذ المدينة، وأنها كادت تفشل لولا بلاغ رجل تحتقِره. لذلك كان أسهل أن تجعلني مجرمًا. الدولة لا تحب الشهود الذين يأتون من القاع.

عادوا بي إلى الزنزانة.

هذه المرة لم تكن زنزانة عادية، بل زنزانة انتظار الموت. لم يعد الوقت يشبه الوقت. حين يُحكم عليك بالإعدام، يصبح كل شيء مؤقتًا بشكل فاحش: النوم، الطعام، الضوء، الخطوات، حتى التنفس. تصبح حياتك مملوكة لتاريخ لم يحدد بعد. كل باب يُفتح قد يكون باب الطعام أو باب النهاية. كل صوت مفتاح قد يكون صوت الحارس العادي أو صوت آخر صباح. الإنسان في حكم الإعدام لا يموت يوم تنفيذ الحكم فقط؛ يموت كل يوم بالتوقع.

كنت أجلس في الزنزانة وأفكر في معنى "زمنُ العبيِد."

في البداية ظننت أن العبيد هم الذين يقبلون بتقبيل الأيادي، الذين يخافون من النظام، الذين يركعون للسيد السياسي. ثم ظننت أن العبيد هم الذين يطيعون الأمير، الذين يسلمون عقولهم لجماعة، الذين يحولون آلامهم إلى قتل. لكنني في النهاية فهمت أن زمن العبيد أوسع من كل ذلك. إنه الزمن الذي لا يترك للإنسان خيارًا نظيفًا، ثم يحاسبه كما لو أنه اختار بحرية. الزمن الذي يدفعك إلى الجوع، ثم يلعنك إذا سرقت. يخرجك من السجن، ثم يرفض تشغيلك لأنك كنت في السجن. يدفعك إلى جماعة متطرفة، ثم يعدمك لأنك دخلت إليها لتكتشف خطرها وتبلغ عنه. زمن يسرق منك الطريقين، ثم يقول لك: لماذا لم تسلك الطريق الصحيح؟

لم يكن لي خياران.

هذه هي العبارة التي ظلت تدور في رأسي.

لم يكن لي خياران.

حين سرقت، لم يكن أمامي إلا جوع أمي وحلم الهرب وطريق خاطئ. وحين خرجت، لم يكن أمامي إلا الشارع أو يد صديق تقودني إلى بيت مظلم. وحين عرفت الخطة، لم يكن أمامي إلا

الصمت أو التبليغ. وحين بلغت، لم يكن أمامي إلا أن أُبتلع. في كل مرة، كانوا يقولون لي إنني اخترت. لكن الاختيار يحتاج إلى أرض يقف عليها الإنسان. أما أنا، فكنت أختار وأنا أسقط. والذين يسقطون لا يختارون الاتجاه كما يختاره من يمشي في شارع واسع.

كتبت في الزنزانة رسالة، لا أعرف هل وصلت إلى أحد.

كتبت:

"أنا المحكوم بالإعدام لأنني رفضت الموت للآخرين. أنا الذي دخلت السجن سارقًا، وخرجت يتيمًا، ودخلت بيت الإرهابيين جائعًا، وخرجت منه شاهدًا، ثم دخلت المحكمة قاتلاً في عيونهم دون أن أقتل. أنا ابن أمي التي ماتت وهي تنتظرني. أنا ابن وطنٍ لا يغفر للفقراء أخطاءهم، لكنه يغفر للكبار جرائمهم. أنا لست بطلاً. أنا لم أنقذ الناس لأنني شجاع، بل لأنني خفت أن أصبح مثل الذين كسروني. إذا أعدمتمُوني، فتذكروا أنني لم أكن أملك إلا كلمة واحدة قلتها في الوقت الخطأ: لا".

ثم كتبت في السطر الأخير:

"هكذا هو زمنُ العبيِد : يقتل السيدُ العبدَ إذا أطاع سيدًا آخر، ويقتله إذا رفض كل الأسياد".

في الليلة الأخيرة، أو ما ظننتها الليلة الأخيرة، رأيت أمي في المنام.

كانت جالسة قرب باب بيتنا القديم، البيت الذي لم يعد لنا. لم تكن غاضبة. لم تكن تبكي. كانت تمسك خبزة ساخنة، كما كانت تفعل حين أعود صغيراً من المدرسة. اقتربت منها وقلت:

سمحي ليا آ مي.

قالت:

على شنو؟

قلت:

على كلشي.

قالت:

واش قتلتي شي حد؟

قلت:

لا.

قالت:

إذن ما تخافش من الموت. خاف غير من اللي عاشو وماتو عبيد.

استيقظت وأنا أبكي.

لم يكن الحلم كافيًا لينقذني، لكنه كان كافيًا لأتنفس.

بعد أيام، جاءني الحارس بالطعام. نظر إليّ طويلاً. كان رجلاً بسيطًا، ربما له أم، ربما له ابن في سني. وضع الصحن وقال بصوت منخفض:

اللّه يفرجها عليك أولدي.

نظرت إليه وابتسمتُ. لم أقل له إن الفرج لا يأتي دائمًا. أحيانًا تأتي النهاية بدل الفرج، ويسميها الناس قدرًا. لكنه كان، بطريقته الفقيرة، يحاول أن يكون إنسانًا داخل آلة. وهذا يكفي أحيانًا.

لم تنتهِ الرواية بتنفيذ الحكم.

ولا بالعفو.

ولا بالبراءة.

لا أعرف ماذا سيحدث بعد الصفحة الأخيرة.

ربما سيُنفذ الحكم في صباح ما، وسأمشي إلى الموت كما مشيت أول مرة إلى السجن، وأنا أفكر أنني حاولت ألا أكون قاتلاً. وربما سيبقى الحكم معلقًا فوق رأسي سنوات طويلة، موتًا مُؤجلاً كما كانت الحياة كلها مؤجلة. وربما يأتي عفو لا يعيد لي ما ضاع.

لا يهم. لأن النهاية الحقيقية حدثت يوم وقفت أمام طريق الدم وقلت لا، ثم اكتشفت أن قول لا، لا يكفي لينجو الإنسان في بلاد لا تحب إلا العبيدِ.

هذه هي حكايتي.

حكاية شاب لم يكن بريئًا بما يكفي ليحبه الناس، ولا مجرمًا بما يكفي ليستحق موته.

حكاية وطنٍ يترك أبناءه للجوع، ثم يندهش حين يلتقطهم الظلام.

حكاية دولةٍ تحارب الإرهاب بيد، وتصنع شروطه باليد الأخرى.

حكاية جماعةٍ سرقت اسم اللّه لتمنح العنف قداسة.

حكاية أمٍّ ماتت وهي تنتظر ابنًا لم يستطع أن يعود في الوقت.

وحكاية عبدٍ صغير، وسط كل هذا، حاول في آخر لحظة ألا يطيع.

فقتلوه قانونيًا.

هكذا هو زمنُ العبيدِ.



هذا العمل

في وطنٍ يتعلّم فيه الفقير معنى الخطيئة قبل أن يتعلّم معنى الحياة، يخرج السارد من السجن باحثًا عن خبزة، عن مأوى، عن بقايا أمٍّ ماتت وهي تنتظره، وعن طريقٍ لا يقوده مرّة أخرى إلى القيد. غير أنّ العالم لا يفتح أبوابه للعائدين من الظلام؛ فكل بابٍ يُغلق في وجهه يدفعه نحو بابٍ أكثر عتمة، وكل يدٍ تمتد إليه تحمل في كفّها خلاصًا ناقصًا وهاوية كاملة.

زَمَنُ العَبِيدِ رواية عن الإنسان حين يُحاصر بين دولةٍ لا ترحم، ومجتمعٍ لا يغفر، وفقرٍ لا ينتظر، وجماعةٍ تريد أن تشتري غضبه باسم الله. إنها حكاية شابٍ لم يكن بريئًا بما يكفي ليحبه العالم، ولا مجرمًا بما يكفي ليستحق موته؛ شابٍّ اكتشف أن العبودية لا تبدأ بالسلاسل، بل حين لا يملك الإنسان إلا الاختيار بين سيدٍ وسيد.

رواية
ممنوعة من النشر



50 درهم

مكتبة النُور
الرباط - المملكة المغربية

زَمَنُ العَبيدِ
الجزء الثاني
محمد قُصير